

علم الفلاح

في بلاد الشام

د. محمد زهير البكبا

□ مقدمة تاريخية :

كنت نشرت في مجلة التراث العربي مقالا عنوانه « المؤلفات العربية في علمي الفلاحة والنبات » ، وذلك في العدد (٢٩) من عام ١٩٨٧ م . وقد تكلمت في ذلك البحث على الحفريات الأثرية التي قام بها العالم الألماني الفرد روست A - Rust في وادي سكفتا بالقرب من يبرود ، حيث اكتشف في كهوف ذلك الوادي أدوات وأسلحة صوانية تعود الى العصر الحجري الأدنى والحجري الأوسط ، وذلك بين عامي ١٩٣٠ - ١٩٣٣ م . هذا وفي أوائل الستينات اكتشف العالم الهولندي Van Lierre ، في حوض نهر العاصي ، وفي موقع اللطامنة والقرماشي شمال الرستن ، منطقة سكنية تعود بقدمها الى أكثر من نصف مليون عام .

استمرت الحفريات الأثرية في بلاد الشام خلال السبعينات ، فاكشفت بعثات التنقيب أكثر من ثلاثمائة موقع ، متوزعة بين وسط البادية وأطراف نهر العاصي والفرات وشرق الليطاني ، ويتراوح قدم تلك المواقع المسكونة بين مليون عام والمائة ألف عام ق.م .

ويرجع علماء الأنثروبولوجيا أن الانسان الأولي الذي سكن بلاد الشام قد جاءها من افريقيا ، واتخذ طريقه الى شمالي البلاد عن طريق ساحل البحر الأبيض المتوسط ، أو عن طريق الوديان الداخلية التي تمر منها الأنهار والسيول .

لقد عاش الانسان في تلك الحقبة من الزمن على شكل جماعات صغيرة ، متنقلا ، باحثا عن الصيد في المناطق التي توافرت فيها وسائل عيشه ، من ماء ونبات وحيوان وأحجار صوان . وكان عدد أفراد تلك الجماعات قليلا بدليل ضالة عدد الأدوات الحجرية التي اكتشفت في كل موقع من تلك المواقع المسكونة . فمثلا لم يجدوا في موقع ست مرخو ، شمال

اللاذقية ، أكثر من عشرين أداة ، أما في موقعي اللطامنة والقرماشي فقد وجدوا حوالي أربعمئة أداة . لم يكن سكان تلك المواقع معزولين عن بعضهم البعض ، فهناك عدة مؤشرات تدل على تواصلهم وتشابه نمط معيشتهم ونظام حياتهم . وكان على رأس كل جماعة أب أو قائد يأترون بأمره ، فيقودهم الى الأماكن الصالحة عند حصول اضطراب في مسيرة حياتهم اليومية . وقد عرفوا اشعال النار للتدفئة والطبخ منذ نصف مليون عام تقريبا .

كان الجليد يغطي النصف الشمالي من الكرة الأرضية . وفي نهاية العصر الجليدي الوسيط تراجع الجليد ، وبدأ الدفء يعم أرجاء القسم الجنوبي من أوربا وأواسط وجنوبي آسيا . ومنذ حوالي (١٢) ألف عام ق.م ، أخذ سكان الهلال الخصيب يخرجون من كهوفهم الجبلية ويتجهون نحو المناطق الساحلية ، فأنشأوا بيوتا صغيرة محفورة في سفوح الجبال ، وهكذا بدأت بعض القرى تظهر للوجود .

وفي أوائل العصر الحجري الحديث Néolithique (أي بين القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد) أخذ الانسان في بلاد الشام يتحول من الصيد والقنص الى التقاط الحبوب والثمار وزراعة الأرض ببعض المحاصيل . ويعتبر موقع أريحا جنوب البحر الميت ، وتل أسود في غوطة دمشق ، وتل شيخ حسن في حوض الفرات ، من أقدم المستوطنات التي نشأت فيها قرى زراعية وبيوت سكنية تكسوها قطع القرميد . وقد وجد فيها مجموعة كبيرة من الأدوات الزراعية كالأجران ورحى الطاحون الى جانب بعض الأواني والفؤوس الحجرية .

ويقول الدكتور سلطان محيسن : « اذا كان الألف الثامن ق.م هو عصر ابتكار الزراعة ، فان الألف السابع ق.م ، كان عصر ترسيخ هذا الابتكار من جهة ، وإضافة ابتكار جديد آخر هو تدجين الحيوانات ، تلك الحيوانات التي كان يسعى لصيدها ، مثل الغنم والماعز والبقر » .

وفي بداية الألف السادس ق.م. توصل انسان العصر الحجري ، في بلاد الهلال الخصيب ، الى اكتشاف صنع الأواني الفخارية من الطين الناعم ، فجففها تحت أشعة الشمس . وقد أصبحت تلك الأواني ، من صحنون وقدور وجرار من الأمور الضرورية في حياة الانسان المزارع لحفظ غذائه وماء شربه ، وبعض المحاصيل التي يدخرها .

وفي منتصف هذا القرن ظهر في منطقة الجزيرة ، شمال بلاد الشام ، حضارة متقدمة عرفت باسم حضارة تل حلف ، بالقرب من رأس العين ، حيث عرف النحاس فيها لأول مرة ، واستخدم في صنع بعض الأدوات المطروقة . كما وجد فيها بعض الأدوات الفخارية المصقولة والمزينة ببعض الرسوم ، والى جانبها قطع من النسيج .

□ انتشار ممالك المدن في بلاد الشام :

كانت بلاد الشام منذ فجر التاريخ خاضعة لنظام ممالك المدن . والسبب في ذلك يعود الى طبيعة أراضيها المجزأة الى مناطق بعضها زراعية مأهولة بالسكان ، وبعضها مناطق جرداء خالية من الماء والزروع . وكانت تنشب بين سكان تلك الممالك العامرة منازعات

وحروب سببها التناحر للسيطرة على المراعي والأراضي الخصبة ، الى جانب محاولات السطو على الثروة الحيوانية والمحاصيل النباتية . وقد أضعفت تلك الغزوات الكيان الدفاعي والحضاري لتلك الممالك ، وجعلتها تخضع لكل فاتح .

لم تظهر في تلك الممالك القديمة مشاريع للري المنظم ، بل اقتصرت الزراعة فيها على مناطق محدودة تقع على أطراف الأنهار والسيول ، او تعتمد على مياه الأمطار .

لقد استطاعت بعض القبائل العمورية ، الآتية من جزيرة العرب ، أن تنشئ في أواخر القرن الثالث ق.م ، عدة ممالك في أرض الرافدين وفي بلاد الشام ، وأصبحت تلك الممالك همزة الوصل بين حضارتي تلك البلاد .

وتعتبر يمحاض ، وعاصمتها حلبا ، من أهم تلك الممالك ، يليها مملكة ماري (في تل الحريري) قرب البوكمال ، ومملكة قطننة (في تل المشرفة) شمال حمص ، ومملكة إيبلا (في تل مردوخ) جنوب حلب ، ومملكة ألالاخ (في تل عطشانة) قرب أنطاكية .

وفي منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ازدهرت على سواحل بلاد الشام حضارة ذات أصل كنعاني (فلسطيني) هي حضارة الفينيقيين ، الذي أنشأوا أسطولا بحريا وبنوا عدة مرافئ كان لها تأثير كبير في نشر التجارة وصناعة السفن والتعدين بين أقطار البحر الأبيض المتوسط . الا أن ظهور اليونانيين كقوة عسكرية بحرية نافست الفينيقيين وأجبرت بعضهم على النزوح ، في القرن الثامن قبل الميلاد ، الى سواحل افريقيا الشمالية ، حيث أسسوا دولة قرطاجة .

لقد أخذ الفينيقيون معهم الى المستعمرات الجديدة خلاصة ما توصلوا اليه من خبرة في علوم الملاحة والتجارة والتعدين ، بالإضافة لعلم الفلاحة . واشتهر منهم ماجو القرطاجي ، الذي ألّف أول موسوعة في علم الفلاحة ، ترجمت الى اللغة اللاتينية عقب سقوط قرطاجة بيد الرومان عام ٨٨ م . وفي بلاد سومر ظهرت المبادئ الأولية لعلم الفلاحة مدونة على ألواح طينية بالخط المسماري . ويعود تاريخ تلك الألواح الى القرن السابع عشر قبل الميلاد . ومما يلفت النظر أن كاتب تلك الوثيقة ، المؤلف من نصائح يقدمها فلاح لابنه ، وتتملق بحرث الأرض وسقيها وحمايتها . . . قال في آخرها : « ان المبادئ الزراعية الواردة فيها ليست من ابتكاره ، وانما هي مبادئ وضعها الاله نيمورتا ، الفلاح الحقيقي ، وهو ابن كبير الآلهة السومرية أنليل » .

لقد شاركت الشعوب التي أقامت في بلاد الرافدين ، وكان أكثرها من جزيرة العرب ، بانتشار وازدهار الزراعة ، فالأكاديون والعموريون والآراميون والأنباط شعوب عربية كانت على خبرة جيدة بشؤون الزراعة .

□ علم الفلاحة في بلاد الشام قبل الاسلام :

لقد كانت حوران والبلقاء منذ عهد الرومان تعتبر أنبار بلاد الشام ، وقد اشتهرت بجودة محاصيلها الزراعية وخاصة الحنطة والشعير وغيرهما من أنواع الحبوب . ونظراً لوجود اعتداءات دائمة من قبل رجال القبائل على المراعي والحقول ، وأحياناً على القرى

والمدن ، المنتشرة في أطراف بلاد الشام لذلك أقام الرومان ، ومن بعدهم البيزنطيون والفرس مخافر دائمة لحراستها . واتخذوا من الفساستة والمناذرة عمالاً يقومون بمنع سكان البادية من التسلل الى المناطق المعمورة بالزراع والسكان .

ان القسم الأعظم من الأراضي الزراعية في بلاد الشام كانت تسقيها الأمطار والينابيع . أما مياه الأنهار فكان يستفاد منها على أطرافها وبعد فيضانها . والسبب في ذلك هو انخفاض مجرى الأنهار بصورة عامة عن مستوى الأراضي الزراعية . لهذا أنشأ الرومان أقنية وأحواضاً لجمع مياه الأنهار والأمطار لسقي الحقول .

لقد اشتهر الأنباط بحفرهم الآبار ، ولكن مياه الآبار كانت تكاد تكفي لشرب البشر وسقي المواشي . وهذا ما دعا لاقامة بعض السدود الصغيرة على مجرى السيول والأنهار وإنشاء الأقنية والنواير فيما بعد .

□ علم الفلاحة في صدر الاسلام وفي العصر الأموي :

حينما استولى العرب في عصر الخلفاء الراشدين على بلاد الشام تركوا زراعة الحقول والعناية بتربية الأشجار لأصحاب البلاد ، واكتفوا بجباية الخراج ، وذلك خوفاً من انصراف المجاهدين الى العمل في الأرض وترك الجهاد .

كان ملاك الأراضي والفلاحون في بلاد الشام على درجة جيدة من الخبرة ، فيما يتعلق باستنباط الماء وزرع الحبوب والبقول وغرس الأشجار ووقايتها من الآفات ، الى جانب خزن المحاصيل لاستعمالها كغذاء أو بذار .

وحينما تولى بنو أمية الحكم أخذ أمراؤهم وأغنياؤهم يتنافسون على اقتناء المزارع ، وعنوا بعمران القرى ، وبنوا في الريف قصوراً لهم ، أحاطوها بالحدائق والبساتين ، وغرسوا فيها مختلف أنواع النباتات المثمرة والمزهرة . وكانوا يقصدونها في فصل الصيف ليتمتعوا بالراحة وبالهواء الطلق ، وليجنوا ثمار وغللات الحقول المجاورة .

لقد اهتم الأمويون بتنظيم سقاية الأرض فأصدر يزيد بن معاوية أمراً بشق قناة تصل نهر بردى بالأراضي العالية الواقعة شمال وشرق مدينة دمشق . كما أن هشام بن عبد الملك كان أول من اتخذ الضياع لنفسه وشق أنهاراً وترعاً قرب الرقة والجزيرة ، حيث أنشأ مزارع كثيرة ، فبلغت غلته أكثر من خراج مملكته .

لم يترك الأمويون أرضاً قابلة للزراع الا استغلوها . وقد استفادوا من خبرة اليد العاملة المحلية ، كما استقدموا عمالاً من البلاد المجاورة ، وذلك كما فعل الخليفة معاوية ، الذي أنزل قوماً من الفرس في أطراف مدينة طرابلس للعمل في اعمار أراضيها .

ومن الأمور الهامة التي تمت خلال الحكم الأموي إنشاء طواحين الهواء ونواير الماء ، ونشر عدد كبير من المحاصيل الزراعية الجديدة ، وخاصة الحمضيات وقصب السكر والقطن والذرة البيضاء ، وأنواع الحبوب والبقول والأشجار المثمرة . كما نشروا زراعة الكرمة

والتين في آواسط البلاد ، وغرسوا أشجارالزيتون والفسق في الشمال ، واشتهر سهل بيسان بالنخيل ، وسواحل لبنان وفلسطين وغور الأردن بقصب السكر والموز والخرنوب .

□ علم الفلاحة والنبات في العصر العباسي :

ولما انتقل الحكم من بلاد الشام الى العراق ، واستتب الأمر لبني العباس أنشأ الخليفة المنصور مدينة بغداد . وكانت أكثر العلوم والصناعات المختلفة ، بما فيها علوم الطب والفلاحة ، وغيرها من المهن الدقيقة ، محتكرة من قبل الأقوام التي كانت تقطن بلاد الرافدين وبلاد الشام ، من كلدان وفرس وأراميين وأنباط . وبما أن العلوم اليونانية والهندية كانت هي المعين الذي استقت منه تلك الشعوب حضاراتها في ذلك الوقت ، لذلك سعى الخليفة المنصور (ت - ١٥٨ هـ) الى ترجمة مؤلفات أرسطو واقليدس ، في علوم الفلسفة والمنطق والهندسة والحساب ، وترجمة كتاب السندهستا وكتاب المجسطي في علوم النجوم والهيئة أو الفلك والجغرافيا .

كان الخليفة المأمون (ت-٢١٩هـ) شبيهاً بجده المنصور من ناحية اهتمامه بعلمي الفلك والنجوم ، وبما أن كتاب المجسطي يضم وصفاً دقيقاً لآلات الرصد التي استعملها بطليموس في حساباته وزيجه ، لذلك جمع المأمون علماء عصره وأمرهم أن يصنعوا مثل تلك الأدوات . كما أمر المأمون ببناء مرصدين الأول على قمة جبل قاسيون في دمشق ، والآخر في حي الشماسية في بغداد .

لم يعرف العرب شيئاً يذكر عن الفلك قبل الاسلام ، الا فيما يتعلق بحركة بعض الكواكب وأمكنة بعض النجوم الساطعة ، وتجمعاتها على شكل أبراج تجتازها الكواكب السيارة . وكانوا يربطون بين حركات الأجرام السماوية وبين السعد والنحس . وينبؤون بواسطتها بالأحداث المقبلة من هطول أمطار وحصول الكوارث وغيرها من الأمور الطبيعية . ومع أن الدين الاسلامي قد بيّن فساد الاعتقاد بالتنجيم ، الا أن ذلك لم يمنع بعض الخلفاء العباسيين ، وخاصة المنصور ، من أن يستشير المنجمين في كثير من الأحوال السياسية والادارية . كما أن كثيراً من أطباء ذلك العهد كانوا يعالجون الأمراض على مقتضى حال الفلك ، وكذلك كان يفعل المزارعون لمعرفة الأوقات المناسبة للقيام بزرع البذور أو غرس الأشجار أو تركيبها أو معالجة أمراضها وآفاتهما . ولهذا السبب نجد أن أكثر كتب الفلاحة التي ظهرت في العصر العباسي وما بعده ، قد خصصت أحد أبوابها للكلام على تأثير الكواكب في حياة النباتات ونموها وموتها .

لقد قام المترجمون في صدر الدولة العباسية بنقل بعض مؤلفات أرسطو الى اللغة العربية ، وكان لبعضها تأثير كبير في النواحي النظرية والعملية من علم الفلاحة ، ومن أشهر تلك المؤلفات كتاب الآثار العلوية وكتاب الطبيعة وكتب الحيوان . . .

— يقول أرسطو في كتاب الآثار العلوية ان فلك القمر يقسم الكون الى قسمين غير متساويين ولا متشابهين، فما فوق فلك القمر (السماء) هو فضاء غير متناه ، وهو عالم الكمال ، لا كون فيه ولا فساد .

وأما ما دون فلك القمر فهو الأرض التي نعيش عليها ، وكل ما فيها خاضع للكون (أي التخلق) والفساد والتبدل . ويقول أرسطوان الكون مؤلف من خمس عناصر ، أولها الأثير ومنه تتألف النجوم وكل ما في السماء من أجرام . أما العناصر الأربعة فتتكون منها جميع الأجسام الموجودة على سطح الأرض ، والتي تتغير طبائعها بتغير طبائع العناصر التي تتألف منها .

– وفي كتاب تاريخ الحيوان يقول أرسطوان الطبيعة تتدرج شيئاً فشيئاً مما لا حياة فيه (الجماد) الى النبات فالحيوان . وتختلف النباتات تبعاً لتنصيبها من الحياة الظاهرة ، وفي البحر مخلوقات يجد الانسان نفسه في حيرة حيالها ، فهو لا يدري هل هي من الحيوان أم من النبات .

لقد وجد أرسطو أن صفة التكاثر والنمو مشتركة بين النبات والحيوان ، أما الحس فيظهر أكثر وضوحاً في الحيوان منه في النبات . وقد غالى من بعده بعض الفلاسفة فقالوا بأن الجماد أيضاً ينمو وأن النبات بصورة عامة يشعر ويحس .

– لقد أعجب العلماء المسلمون ، في القرون الوسطى ، بأفكار أرسطو والمتعلقة بسلم الترقى الطبيعي ، وخاصة أصحاب النزعة الصوفية ، وقالوا بسلسلة الوجود التي ترتقي فيها المواليد من المعدن الى النبات ، ومن النبات الى الحيوان ، ومن الحيوان الى الانسان ، ثم من الانسان الى الله عز وجل . وكانت تلك الفكرة من خير الوسائل التي اعتمدها في ايضاح اثبات ما بنيت عليه الطبيعة من وحدة وترتيب بمشيئة الخالق المبدع لهذا الكون .

لقد آجال بعض علماء المسلمين النظر في فكرة الخلق والتكوين ، فذكروا مختلف الأفكار التي جاءت في الكتب السماوية وفي مؤلفات أصحاب الأخبار والمفسرين ، فأدرجها بعضهم في رسائل متفرقة ، وضمها بعضهم الى مؤلفات علم الفلاحة والنبات . وسنذكر فيما يلي أسماء بعض العلماء الذين ظهروا بين القرنين الثاني والثالث للهجرة ، مع أشهر مؤلفاتهم بهذا الخصوص :

١ – النضر بن شميل (ت – ٢٠٤ هـ) :

له كتاب الصفات ، يتألف من خمسة أجزاء ، تكلم فيها على خلق الانسان وصفاته ، ومساكنه وحيواناته وطيوره المدجنة ، وغذائه وما زرعه من كرم وبقل وشجر ، كما تكلم على الشمس والقمر والليل والنهار ، والرياح والسحاب والأمطار . . .

٢ – عبد الملك بن قُريب الأصمعي (ت – ٢١٧ هـ) :

له كتاب خلق الانسان – كتاب الأجناس – كتاب النبات والشجر ، كتاب الخيل والابل والشاء والوحوش . . . ويعد كتابه في النبات من خير ما ألّف في هذا العلم ، وهو يضم حوالي (٢٨٠) نوعاً من النباتات .

٣ - أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري (ت ٢١٥ هـ) :

له كتاب في خلق الانسان - النبات والشجر - المطر - المياه . . .

٤ - أبو حنيفة أحمد بن داود الملقب بالدينوري (ت - ٢٨٢ هـ) :

له كتاب في الأنواء وآخر في علم النبات . قال عنه أبو حيان التوحيدي : « انه من نوادر الرجال ، جمع بين حكمة الفلاسفة وبينان العرب ، وكلامه في الأنواء يدل على حظ وافر من علم النجوم وأسرار الفلك ، أما كتابه في النبات فلم يصنف في معناه مثله » .

لقد اهتم مؤلفو هذه الكتب بالأسماء المترادفة للنباتات وأسماء مختلف أقسامها ، وصفاتها الخارجية ، والبيئة التي تعيش فيها ، وتصنيفها وطرق الاستفادة منها . لكنهم لم يتعرضوا غالباً لطرق تكاثرها ولم يتعمقوا بذكر أوصاف أزهارها ، وهذا ما جعل من المتعذر أحياناً معرفة الاسم العلمي الصحيح لها . ومع هذا فان كثيراً من المعلومات النباتية التي وردت فيها أدمجت في كتب الفلاحة التي ظهرت فيما بعد .

□ كتب الفلاحة والنبات المترجمة للغة العربية :

ظهر في البلاد العربية خلال الحكم العباسي كتابان في علم الفلاحة ، كان لهما كبير الأثر في ظهور مؤلفات عربية متطورة أدت الى حصول ثورة زراعية في شرق العالم العربي الاسلامي وفي غربه . وقد ترجمت بعض تلك المؤلفات في اسبانيا الى اللغة اللاتينية وكانت سبباً من أسباب ظهور النهضة الزراعية فيها في نهاية العصر الوسيط . وسنتكلم بصورة موجزة فيما يلي عن كل من هذين المؤلفين :

أ - كتاب الفلاحة النبطية :

وهو كتاب ضخم تتجاوز عدد صفحاته السبعمئة صفحة من القطع الكبير . قام بتأليفه عالم يدعى توثامى الكوكاني ، خلال القرن الأول للميلاد ، كما يقول العالم رينان Ernest Renan . ولكن العالم شولسون Chwolson ، الذي قام بدراسة متعمقة له عام ١٨٥٩ م أثبت أن أصوله تعود الى القرن الثامن ق.م .

لقد قام بنقل هذا الكتاب من اللغة السريانية القديمة (الآرامية) الى اللغة العربية ، أبو بكر أحمد بن علي بن المختار الكلداني الصوفي ، المعروف بابن وحشية . وذلك زمن الخليفة المكتفي بالله العباسي - وقد أملاه على تلميذه أبي طالب علي بن محمد الزيات عام (٣١٨ هـ - ٩٣٠ م) . وإذا رجعنا الى كتاب الفهرست نجد هذا الكتاب مصنفاً في جملة المؤلفات المتعلقة بالسحر والشعوذة والصناعة (السيمية) . ولم يصنفه النديم في باب المؤلفات العلمية ، نظراً لما فيه من أمور تتعارض مع مبادئ الدين الاسلامي ، لذلك أهمل ذكر كتاب الفلاحة النبطية في شرق العالم العربي ، بينما ذاع صيته وانتشر في بلاد الأندلس .

يعتبر كتاب الفلاحة النبطية خلاصة ما توصلت اليه الشعوب القديمة ، وهي التي كانت تقطن بلاد الهلال الخصيب ، من خبرة عملية وعلم في فلاحة الأرض واصلاحها

وزرعها ودفع الآفات والأمراض عن النباتات التي تنمو فيها . بالإضافة الى معرفة الشروط السكنية والبيئية اللازمة لحياة العمال ، والتنبؤ بأحوال الجو .

لقد وجد ابن خلدون في كتاب ابن وحشية مزيجا من علم وسحر وشعوذة وعبادة كواكب وصنع طلاس ، فقال : « ولما نظر أهل الملة فيما اشتمل عليه هذا الكتاب ، وكان باب السحر مسدودا ، والنظر فيها محظورا ، فاقصروا منه على الكلام في النبات ، من جهة غرسه وعلاجه وما يعرض له في ذلك . وحذفوا الكلام في الفن الآخر منه جملة » ثم تابع ابن خلدون الكلام في موضع آخر من مقدمته فقال :

« ان ابن العوام قد اختصر هذا الكتاب ، واكتفى منه بالقسم الخالي من السحر ، وبقي الفن الآخر مغفلا حتى جاء مسلمة المجريطي ، فنقل منه في كتبه السحرية امهات من مسائله » .

لقد أخطأ ابن خلدون بالحقيقة في ترتيب الحوادث التاريخية وتسلسلها ، ذلك لأن مسلمة المجريطي عاش في القرن الرابع الهجري ، وهو اول من أدخل كتاب الفلاحة النبطية الى الأندلس ، فاستفاد مما ورد فيه من أمور تتعلق بالسحر والصناعة وعلم التنجيم ، ووضع كتابا عنوانه (غاية الحكيم) . أما ابن العوام فقد عاش في القرن السادس للهجرة وألف كتابه الفلاحة الأندلسية .

— يتألف كتاب الفلاحة النبطية من مقدمة وثلاثة عشر بابا . وقد وجه ابن وحشية كلامه في مقدمة كتابه الى ابنه مبينا له الأسباب التي دعت الى ترجمة ونقل هذا الكتاب الى اللغة العربية . لقد أراد ابن وحشية أن يطلع العرب على تراث اجداده من الكلدانيين ، وهم أنباط العراق ، وان يثبت للعرب تفوق شعبه في علوم نافعة وغامضة ، عجزت بقية الأمم عن معرفتها واستنباطها .

بدأ ابن وحشية في الباب الأول من كتابه بالكلام على شجرة الزيتون ، وبيّن أوصافها والطرق المستعملة في زراعتها والعناية بها ، وتغيير صفات ثمارها بالانشاب والتركيب ، واعتبرها من النباتات الخاضعة لتأثير زحل . ثم تكلم على المياه وأنواعها ، وحفر الآبار وتحسين غزارتها وطعم مائها . وانتقل بعد ذلك للكلام على النباتات ذوات الأزهار العطرية ، وعددها احد عشر نباتا ، ثم تكلم على النباتات الطبية والتزيينية ، وعددها ثلاثة وعشرون نباتا — وخصص الباب الخامس للكلام على ما يحتاجه كل مزارع من معلومات تشمل : العلاقات الزراعية — التنبؤ بأحوال الجو وعلامات المطر — معرفة ما يصلح من الزرع لكل نوع من أنواع الأراضي ، مع دراسة فيزيائية لأنواع الأراضي — اصلاح الأرض بأنواع الدبال مع ذكر الطرق المختلفة للتخلص من الأعشاب الضارة .

— وفي الأبواب الأربعة التالية تكلم ابن وحشية على الحبوب والقطاني ، فذكر ثلاثين نوعا منها . كما تكلم على النباتات ذوات البذور الزيتية وذكر منها سبعة أنواع . ثم الخضار والبقول المستعملة في تحضير الطعام وعددها (٧٠) .

— وفي الباب العاشر من كتابه تكلم على شجرة الكرمة وطرق زراعتها وتكاثرها ، واستعمال المرايا العاكسة لتدفئتها عند الحاجة ، كما ذكر الأمراض التي تصيبها مع طرق

معالجتها • واعتبر شجرة الكرمة خاضعة لتأثير المشتري والزهرة • وبيّن كيفية تحضير الترياق من عصير عنبها •

– وفي الباب الحادي عشر ورد ذكر عدد كبير من الأشجار ، يبلغ الثمانين بين نوع وجنس ، بعضها طبي وبعضها مثمر وبعضها يستعمل في الصناعة أو التدفئة • وتكلم في هذا الباب على طرق التركيب ، كما استخدم المرايا العاكسة للحصول على أزهار أطيب رائحة وثمار أكثر عصيراً •

– وخصص الباب الثاني عشر للكلام على الفن العظيم ، ويقصد به الطرق السحرية التي يمكن بواسطتها الحصول على كائنات جديدة بطرق التعفين ، وتحويل أفراد من إحدى الممالك الثلاث الى أفراد من مملكة أخرى •

– أما الباب الأخير فقد كرسه ابن وحشية للكلام على شجرة النخل ، من ناحية زراعتها ونقل فسائلها وطرق معالجتها حين إصابتها بالأمراض ، ثم بيّن فضل النخلة على بقية الأشجار ، وأنها صلة الوصل بين النبات والانسان لعدة أسباب ، منها أنها ثنائية الجنس ، فمنها الذكر ومنها المؤنث ، ولا تنمو ثمارها الا بالتلقيح • كما أنها ذات ذروة هي بمثابة الرأس بالنسبة للانسان ، فاذا قطعت ذروتها ماتت •••

يشمل كتاب الفلاحة النبطية مواضيع مختلفة وهامة ، ويحتاج كل باب فيه لبحث مطول • وقد قام فعلاً عدة علماء وباحثين ، عرب وأجانب ، بدراسات شمل بعضها النواحي الدينية ، واهتم بعضها بعلوم الفلك والتنجيم والأنواء ••• الا أن تلك الأبحاث لا تؤلف الا جزءاً بسيطاً مما جاء في هذا المؤلف الضخم • ولما كان الباب الثاني عشر ، وهو المخصص للكلام عما يسميه ابن وحشية (الفن العظيم) لم يدرس على ضوء الأبحاث العلمية الجديدة ، لذلك سأخصص له جزءاً من دراستي في نهاية المقال •

ب- كتاب الفلاحة اليونانية **Geoponics** : ظهر في بلاد الشام خلال القرن الرابع للميلاد كتاب في الفلاحة باللغة اليونانية ، ينسب الى أناطوليوس البيروتي ، ويتألف من اثني عشر جزءاً ، وقد فقد الأصل اليوناني لهذا الكتاب • الا أن الأب بولس سباط أعلن في محاضرة ألقاها في المعهد المصري بالقاهرة ، عام ١٩٣٠ ، أنه عثر على مخطوط عنوانه (كتاب فلاحة الأرض لابطرايوس) ، ثم قال ان هذا الاسم محرف وأصله أناطوليوس **Anatolius** . والمخطوط جيد وفريد ، كتب في منتصف القرن التاسع للهجرة • وقد جاء في مقدمته :

« هناك كتاب لابطرايوس الحكيم ، جمعه من حكمة الحكماء القدماء ، الذين جربوا الأمور في سالف الدهور ••• وهو من الحكمة التي استخرجها بطرك الاسكندرية ومطران دمشق (أوسطاث الراهب) ، ليحيى بن خالد بن برمك • وفسره من الرومي الى العربي في شهر ربيع الآخر عام ١٧٩ هـ •

ويضيف الأب سباط أن بطرك الاسكندرية هو بليطان Politanus ، الذي اشتهر زمن الخليفة هارون الرشيد ، وقام بشفاء احدى نساائه . توفي عام ١٨٦ هـ فخلفه الراهب أوسطاث Eustache الذي بقي بطركاً حتى وفاته عام ١٩٠ هـ .

لم يشتهر هذا الكتاب في شرق العالم الاسلامي ، ولكن اذا رجعنا الى بعض مؤلفات علم الفلاحة ، والتي ظهرت في بلاد الأندلس فاننا نجد كثيراً من النصوص المقتبسة منه ، والمنسوبة لابطراليوس . فمثلاً ورد هذا الاسم في كتاب المقنع في الفلاحة لأحمد بن محمد بن حجاج الاشبيلي (١٢) مرة .

مما لا شك فيه أن أشهر كتاب في الفلاحة اليونانية ترجم الى اللغة العربية كان كتاب لرجل رومي يدعى بالعربية قسطوس بن اسكوراسكينة . ويقول الأب سباط ان هذا الاسم محرف أيضاً وأصله باللغة اللاتينية Cassianus Bassus Scolasticus ، وان صاحبه عاش في القرن السادس للميلاد .

يتألف هذا الكتاب من عشرين جزءاً ، ويضم كثيراً من الأبحاث التي وردت في كتاب أناطوليوس المار الذكر .

وفي منتصف القرن العاشر اختصر كتاب قسطوس ، وتم نقله الى اللغة العربية من قبل عدة مترجمين ، وكان أبرعهم سرجيس بن هليا الذي عاش في القرن الحادي عشر . وقد طبع هذا الكتاب بالقاهرة عام (١٢٩٣ هـ - ١٨٧٥ م) .

يتألف كتاب قسطوس الرومي من اثني عشر باباً تكلم فيها مؤلفه عن جميع الأمور التي تهتم المزارع في حقله أو في بستانه ، فابتدأ بذكر أسماء الشهور والبروج والكواكب ، ووصف مسير الشمس والقمر ، وأوقات طلوع القمر ومغيبه ، والفصول والعلامات التي تدل على حدوث العوارض الطبيعية من أمطار ورياح وجفاف وغير ذلك . ثم تكلم على المساكن ومواضع المياه وصفات الأراضي واستصلاحها ، وما يصلح لها من زرع أوقات الحصاد وخزن المحصول . وخصص الجزء الرابع للكلام على الكرمة .

— وفي الأجزاء التالية (الخامس حتى السابع) تكلم على ترتيب البساتين وغرس الأشجار فيها وتركيبها ، ومداداة أمراضها وآفاتها . وخص شجرة الزيتون بشيء من التفصيل . ثم تكلم على زراعة البقول ، وبذلك انتهى القسم المخصص للكلام عن الفلاحة .

— أما في الأجزاء الباقية (من الثامن حتى الثاني عشر) فقد خصصه للكلام على صفات الخيل وتربيتها والعناية بالحيوانات والطيور . وختم كتابه بالكلام على كثير من الأمور التي يحتاج اليها الانسان في حياته المنزلية .

□ كتب الفلاحة الأندلسية :

لقد أدخل الفتح العربي الى بلاد الأندلس عناصر بشرية ويداً عاملة مارس بعضها الزراعة والصناعة منذ آلاف السنين . لقد جاءت تلك العناصر من بلاد الشام واليمن ومصر وشمال افريقيا ، فادى ذلك الى تطور سريع وخاصة في مجال الزراعة والصناعة والطب . لقد جلب الفاتحون معهم أنواعاً من البذور والغراس لنباتات لم تكن معروفة في الأندلس ، كما أدخلوا تقنيات في طرق الري ، فتعددت المحاصيل ، وظهرت أصناف جديدة من الثمار بنتيجة التركيب (التطعيم) والتهجين .

ومما يلفت النظر كثرة المؤلفات التي ظهرت في علم الفلاحة خلال الحكم العربي في الأندلس ، بدءاً من القرن الخامس الهجري او الحادي عشر للميلاد . وسأذكر فيما يلي بعض هذه المؤلفات بصورة موجزة مع نبذة يسيرة عن حياة مؤلفيها :

١ - قام أبو المطرف عبدالرحمن بن محمد بن وافد اللخمي (ت ٤٦٧ هـ - ١٠٧٤ م)

وكان طبيباً ليحيى المأمون بن ذي النون، أمير طليطلة ، برعاية الحديقة التي كانت تحيط بقصر الأمير . ووضع مؤلفاً في علم الفلاحة طبع في مدينة فاس عام ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م) ونشر الاستاذ غارسيا غومز في مجلة Hesperis مقالاً عنه عام ١٩٤٥ م .

٢ - كتاب الفلاحة لابن بصال :

وكان معاصراً لابن وافد ، واشترك معه في العناية بجنة المأمون أو بستان الناعورة . ويعتبر كتابه من أجود المؤلفات في علم الفلاحة والنبات ، من ناحيتي الترتيب والايجاز . وتظهر فيه روح التجربة الشخصية والمزاولة المباشرة للعمليات الزراعية . وقد تحاشى فيه ذكر المراجع العلمية السابقة التي استفاد منها .

قام بنشر وتحقيق وترجمة كتاب ابن بصال الى الاسبانية خوسي ماريه بيكروسا ، الأستاذ بجامعة برشلونة ، بالتعاون مع الأستاذ محمد عزيما السكرتير العام لوزارة التربية والثقافة في المغرب وذلك عام ١٩٥٥ . ويقال بأن المخطوط الذي تم تحقيقه ليس سوى مختصر لكتاب مطول ضاع أثره . ويعتبر تصنيف ابن بصال للنباتات من ناحية قابليتها للتطعيم انجازاً علمياً رائداً ، فاتبعه من جاء من بعده .

٣ - كتاب الفلاحة الأندلسية لابن العوام الاشبيلي :

لقد أكثر ابن العوام من ذكر الاقتباسات التي جمعها في كتابه . واذا كان هذا الأمر ينقص من قيمة الكتاب في نظر بعض النقاد ، الا أنه يعتبر بالنسبة للمؤرخين صفة ممتازة تدل على أمانة المؤلف ، كما تفيد المؤرخ في معرفة التسلسل التاريخي للأفكار والأبحاث والتجارب .

لقد استبعد ابن بصال جميع الأمور السحرية والدينية من كتابه ، على عكس بقية المؤلفين في علم الفلاحة . واستفاد من مؤلفات علماء روم ولاتين ، لم يكن يعرفهم من ألف في علمي الفلاحة والنبات في شرق العالم الاسلامي ، وإذا كان ابن بصال لم يذكر أسماء أولئك المؤلفين فإن ابن العوام جاء على ذكرهم جميعاً ، واحتفظ بكثير من آراء ابن وحشية لذلك قال ابن خلدون ان كتابه ليس سوى مختصر لكتاب الفلاحة النبطية .

تابع ابن بصال تجاربه الزراعية في مدينة اشبيلية بعد سقوط غرناطة عام ١٠٨٥م . وقام بعد ذلك بتأليف كتابه الذي أصبح مرجعاً لكل من ألف من بعده في علم الفلاحة ، وخاصة ابن العوام الذي أشار اليه مئات المرات في كتابه الفلاحة الأندلسية .

مما سبق يتبين لنا أن المزارعين في بلاد الأندلس قد اهتموا بإنتاج كثير من المحاصيل الزراعية كالحبوب والبقول والخضر والأشجار المثمرة ، الى جانب اهتمامهم بالنباتات التزيينية والأحباق والنباتات الطبية ، كما قاموا بالتطعيم على نطاق واسع .

— ولكننا لا نعرف بصورة واضحة شكل العلاقات الزراعية التي كانت تربط بين ملاك الأراضي والعاملين فيها . وكان من المفروض أن يخصص مؤلفو كتب الفلاحة باباً خاصاً لبحث هذا الموضوع الهام ، خاصة وان بلاد الأندلس قد تعاقب على حكمها أنظمة مختلفة انتقلت فيها من امارة الى خلافة الى حكم ملوك الطوائف .

لقد وجدت في كتاب المقنع في الفلاحة لابن حجاج الاشبيلي فصلاً صغيراً عن (تخيّر الأكرة) ، أورد فيه الأفكار التالية :

١ - ينبغي أن يختار من الفلاحين الشباب ، فان الشباب أقوى على احناء الظهور والأكثاف والمداومة على العمل .

٢ - ينبغي ألا يعمل عدد كبير من الفلاحين في موضع واحد ، لأنهم اذا اجتمعوا كثر حديثهم وأشار بعضهم على بعض بالمكر والخبث . لذلك ينصح بقسمهم الى مجموعات تتألف من ستة الى عشرة عمال ، ويشرف على كل مجموعة قيّم .

٣ - يجب أن يكون للأرض أمين ، له حظ من صلاح ودين وصدق وشأن ، ليقتدي به أهل القرية ، اما استحياء أو خوفاً أو طمعاً . وينبغي ألا يكون أكولاً ولا شارب خمر . وليستشر أهل المعرفة بأوقات العمل .

□ تربية الحيوانات والنحل والطيور والدواجن في كتب الفلاحة العربية :

درجت كتب الفلاحة اليونانية على تخصيص الأبواب الأخيرة فيها للكلام على تربية الحيوانات والنحل والطيور والدواجن . ولكن اذا رجعنا الى كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية نجد أنه لم يتعرض لتلك الأبحاث . وقد ذكر السبب في اهماله تربية النحل لانه عمل لا يزاوله سكان بلاده . أما تربية الأبقار والأغنام وغيرها من الحيوانات فقد وضع لها كتاباً خاصاً أشار اليه .

وحينما ظهرت كتب الفلاحة في الأندلس وفي بلاد الشام اتبع المؤلفون إحدى هاتين الطريقتين ، فمثلاً لم يتكلم ابن بصال وابن حجاج على تربية المواشي والطيور ، بينما خصص ابن العوام الفصول الخمسة الأخيرة من كتابه للكلام عليها .

□ تأخر الزراعة في بلاد الشام خلال حكم العباسيين والفاطميين بسبب الويلات المتلاحقة:

لقد بدأت المصائب تحل ببلاد الشام منذ أوائل الدولة العباسية . ذلك أن أبا العباس السفاح أرسل حملة بقيادة عمه عبدالله بن علي لمطاردة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، الذي فرّ من حرّان إلى حمص ، ثم رحل عنها إلى دمشق . فلما وصل عبدالله بن علي إلى دمشق حاصرها وفتحها سنة ١٣٢ هـ ، ففرّ مروان إلى فلسطين . ويقال بأن الفاتح أباح المدينة لجنوده خلال ثلاث ساعات ، فقتلوا عدداً كبيراً من الأمراء والعلماء إلى جانب الألوف من السكان .

تابع الجيش العباسي تقدمه في فلسطين ملاحقاً فلول بني أمية فخرّب المدن والأرياف ، ولم يستطع أن يفلت من أمراء بني أمية إلا بعض أفراد منهم عبدالرحمن بن معاوية الذي فرّ فيما بعد إلى الأندلس وأقام فيها إمارة ثم خلافة .

توالى الفتن في بلاد الشام بسبب رغبة اللبنانيين والفلسطينيين في نزع طاعة العباسيين ، كما دبّ الخلاف المزمّن بين القيسيين واليمانيين ، إلى جانب الفتن الأهلية التي قامت بسبب العصبية المحلية .

وفي أواخر القرن الثالث للهجرة وصل انقرامطة إلى دمشق فحاصروها واحتلوها ، ثم تقدموا لاحتلال بقية المدن في بلاد الشام فعاثوا فيها سلباً وفساداً واذلالاً ، وأبادوا سكان عدة مدن منها حماة والمعرّة والسلمية ، وخرّبوا مدينة طبريا في فلسطين .

وخلال القرن الرابع الهجري تنافس على حكم بلاد الشام ثلاث دول هي : الاخشيديّة – والحمدانيّة – والفاطميّة . ولكن الحروب والثورات ما لبثت أن قضت على حكم الاخشيديين في مصر والحمدانيين في حلب ، وبقيت بلاد الشام خاضعة لنفوذ ولاية طغاة ، حكموا باسم الفاطميين ، فأكثروا من سفك الدماء وسلب الأرزاق ، فساد الفقر وعمّ الغلاء . وبقي الأمر على هذا الحال إلى أن سار السلطان ألب أرسلان ، ثاني ملوك السلاجقة إلى حلب فاحتلها عام ٤٦٣ هـ ، وقطع الخطبة للخليفة الفاطمي وخطب للخليفة القائم العباسي .

تنازع السلاجقة والفاطميون على حكم بلاد الشام ، فملك الفاطميون بعض المدن الساحلية ، وملك السلاجقة أكثر المدن الداخلية . وفي عام ٤٩٠ هـ بدأ الصليبيون حملتهم الأولى فتوجهوا لانقاذ قبر السيد المسيح من أيدي المسلمين .

لقد تمكن الصليبيون بسبب كثرة عددهم وبتعاون بعض الطوائف معهم ، من الاستيلاء على أنطاكية ، ثم ساروا إلى المعرة فقتلوا ما يزيد على مائة ألف شخص وسبوا مثلهم .

وقطعوا الأشجار وهدموا الدور وخرّبوا المزارع واستولوا على المحاصيل ، فانتشرت المجاعة ، ويقال بأن الناس اضطروا الى أكل جثث الموتى .

ولما استولى الصليبيون على القدس عام ٤٩٢ هـ قتلوا خلال أسبوع واحد ما يزيد على سبعين ألفاً من المسلمين ، وهكذا فعلوا في بقية بلاد الشام الساحلية . فهام الناس في البراري والقرى ، وفرّ بعضهم الى مصر حيث عانى الفقر وسوء الحال .

لم ينهض الفاطميون لقتال الفرنج لمّا دخلوا بلاد الشام ، ذلك لأن جيشهم وأسطولهم لم يكونا على استعداد لمقاومة هذا الغزو المفاجيء . ولكن حينما أخذ الصليبيون يحتلون مدن الشام الساحلية ويتوغلون داخل البلاد خاف الفاطميون على أنفسهم فأرسلوا نجدات ضعيفة عن طريق البر والبحر .

لقد حرص الصليبيون على الاستيلاء على قرى حلب والبقاع وحوارن والبلقاء ليستفيدوا من غلاتها الكثيرة ، ولأن معظم القرى في فلسطين كانت ساحات حرب ، فتعطلت الزراعة فيها وعجزت بالتالي عن اطعام جيش الغزاة .

وفي القرن السادس للهجرة (٥٢١ هـ) منيت بلاد الشام بفتنة الاسماعيليين الذين استطاعوا الاستيلاء على حلب ودمشق ، بقيادة بهرام الفارسي الذي جاء من العراق الى الشام داعياً لمذهبه ، وقد انتهز الصليبيون الفرصة فاغاروا على حوارن لنهب محاصيلها ، كما نهبوا وادي موسى وشرّدوا أهله .

لقد قيّض الله الخلاص لبلاد الشام من تلك المحن فأرسل عماد الدين زنكي ، والي الموصل ، جيشاً بقيادة قراقوش ، فوصل حلب عام (٥٢٢ هـ) فأخضعها ، ثم خضعت له مدن الشام الواحدة بعد الأخرى .

وفي عام ٣٥٩ هـ استطاع عماد الدين أن يستولي على الرها ، وأن يحرر شرق الفرات الذي كان يحتله الفرنج ، ولكنه قتل على يد جماعة من مماليكه عام ٥٤١ هـ في قلعة جعبر .

خلف نور الدين أباه ونجح بمعونة أخيه سيف الدين غازي أن يصل الى دمشق وأن يفك الحصار عنها ، وأن يقضي على الحملة الصليبية الثانية في موقعة جرت في منطقة المزة بجوار دمشق . كما فتح كثيراً من الحصون الصليبية المنتشرة على سواحل بلاد الشام وأن يأسر الألوف من جيش الفرنج ، وكان من بينهم ملوك وأمراء . وقد قبل منهم الفدية لقاء تحريرهم ، فحصل على مبالغ كبيرة من المال بنى بواسطتها الجوامع والمدارس والبيمارستانات . وقد مدحه ابن الأثير فقال بأنه لم يجد بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين . . .

توفي نور الدين بعد حكم دام أربعة وعشرين عاماً ، أعاد خلاله للمسلمين هيبتهم ، بحسن بلائه في قتال الصليبيين ، وحرصه على نصرة المستضعفين . وقد سار على نهجه السلطان

صلاح الدين ، الذي كان عامله في مصر ، ثم امتد حكمه بعد وفاة نور الدين الى بلاد الشام ، حيث استطاع أن يحطم جيش الفرنج في حطين وأن يحرر بيت المقدس عام ٥٨٣ هـ .

اختلف سلاطين بني أيوب بعد وفاة صلاح الدين ، وعادت بلاد الشام الى عهد ممالك المدن المتناحرة . وكانت ويلات تلك الخلافات تقع دائماً على المدن والقرى والأرياف فتقطع الأشجار وتسد الأنهار وتحرق الأكواخ ودور السكن .

وحينما توفي الملك الصالح أيوب عام ٦٤٧ هـ كان أكثر أمراء عسكره من المماليك الأتراك (البحرية أو البرجية) فاستطاعوا بعد مقتل ابنه تورنشا أن يستولوا على الحكم في مصر وبلاد الشام ، وأن يحولوها الى اقطاعات يستغلونها أبشع استغلال .

□ الكفول والتتر يعيشون فساداً في أرض الشام :

في عام ٦٥٧ هـ تقدم هولاكو ملك التتر فاستولى على حران والجزيرة . ثم وأصل ابنه تقدمه الى حلب فأخرج أهلها منها بحيلة ، لأنها كانت مدينة حصينة ، وأعمل فيهم السيف حتى لم يبق على أحد . وهكذا فعل بحارم وحماة ودمشق وبقية مدن الشام . وحينما وصل التتر الى عين جالوت ، وهي تقع بين بيسان ونابلس استطاعت العساكر الاسلامية ، بقيادة المظفر قطز أن توقف زحفهم وأن تفني أكثرهم .

وفي عام ٦٩٩ هـ أعاد التتر الكرة على بلاد الشام انتقاماً لوقعة عين جالوت ، وبعد أن قاموا بقتل وأسر عدد كبير من السكان تراجعوا عن دمشق بعد أن تقاضوا مبالغ طائلة من المال .

وفي عام ٨٠٢ هـ جاء تيمورلنك بحملته المشؤومة فكرر ما فعله التتر ، ولكن بوحشية ودناءة تفوق الوصف . وقد صب جام غضبه على مدينتي حلب ودمشق ، فساق منهما الأسرى والسبايا ، واختار أصحاب العلم والمهن ثم أمر بأحراق ما تبقى فيهما من المساكن والأمكنة الأثرية .

ويقول الأستاذ كرد علي : « وبعد أن نجت الشام من فتن التتر وتيمور ووقائع الصليبيين وويلاتها عاودتها الأوبئة والمجاعات والزلازل ، فزلزلت حلب سنة ٨٠٦ هـ فتخرب كثير من معابدها ومساجدها ، وفي عام ٨١٤ هـ انتشر الطاعون في دمشق وأطرافها فخلت من سكانها . ووصل الطاعون الى حلب عام ٨٢٠ هـ فقضى على سبعين ألف شخص ، ثم تكرر انتشاره عام ٨٦٣ هـ فأربى عدد الموتى على المائتي ألف . »

□ تأثير نظام الاقطاع والوقف في شلل النظام الزراعي :

لقد اعترفت الدولة الاسلامية منذ ظهورها ، من الناحيتين القانونية والعملية ، بحق الفرد في أن يملك الأرض التي يقوم على زراعتها . ولهذا الفرد الحق في أن يبيع أرضه أو يرهنها أو يوصي بها لغيره . وكان يستطيع أن يزرعها أو يجعل غيره يزرعها . ولكن

ظهرت فيما بعد آراء فقهية تقول بأن بعض الأراضي المستولى عليها أثناء الفتح أو كلها تعود الى الدولة أو الى مجموع المسلمين ، الآن هذا الرأي لم يطبق بصورة عملية .

ان حق ملكية الأرض يختلف باختلاف عوامل كثيرة . فهناك أراضٍ كان يمتلكها المسلمون أو كتبت لهم عن طريق الشراء أو الميراث أو التنازل أو الاستصلاح . وهناك أراضٍ كان يمتلكها غير المسلمين وقد ثبتت ملكيتهم لها عن طريق الدولة أيام الفتح أو بعد ذلك . وهناك أراضٍ لم يكن للأفراد من حيث المبدأ حق الملكية عليها كأراضي الدولة التي تم تملكها بعد الفتح أو المصادرة ، والتي كانت تدار بأشراف الحاكم ، الذي كان يمنح حق الانتفاع بها للمستأجر أو للمالك السابق لقاء دفع ضريبة الأرض أو دفع الخراج . إلا أن أراضي الدولة كثيراً ما كانت تدخل في ملكية الحاكم أو يستولي عليها بعض أعوانه أو أقربائه أو المتنفذين .

— كانت الحيازات الزراعية الكبيرة مسيطرة في صدر الاسلام ، ولكن بنتيجة عوامل كثيرة ، منها البيع والمصادرة والميراث وشح المياه ونقص اليد العاملة ، جعلت تلك الحيازات تتناقص بعددها وتضيق مساحاتها .

واستناداً الى قول القائل بأن الأرض لمن يعمل بها ، فإن كثيراً من الأفراد الذين كانوا يملكون أرضاً زراعية واسعة ، ولكن لا يملكون كفاءة إدارتها أو الإشراف عليها ، كانوا يضطرون لبيعها أو لتسليمها لمزارعين يحسنون العمل فيها ، لقاء تقاسم الانتاج . وكان مستأجرو الأرض يرتبطون بمعقود زمنية محددة غالباً .

لم يكن المالكون أو المستأجرون مقيدين بمتطلبات كثيرة في أراضيهم تجاه الدولة ، لذلك كان بالإمكان أحداث تغيرات كثيرة في طريقة استعمال الأرض وتغيير نوعية المحاصيل ، وهذا ما ساعد على زيادة الانتاج وتنوعه .

لقد ظهر في العصر العباسي ، منذ القرن الثالث للهجرة نظام يمنح بعض الأفراد امتيازات لقاء خدمات مدنية أو عسكرية أو طيبة . وكانت تلك الامتيازات تتمثل باقطاع أحدهم قرية أو مقاطعة بحيث يحق له أن يجمع الضرائب المستحقة على الأفراد والممتلكات طيلة حياته . وكانت تلك الامتيازات تزول بوفاة صاحبها فترد إيراداتها لبيت المال أو يترك شيء منها للورثة .

كان صاحب الاقطاع يسعى جهده للحصول على أكبر كمية ممكنة من المال والانتاج من ملاكي الأراضي أو المستثمرين لأراضي الدولة ، دون أن يهتم بتقديم أية خدمات لهم . وحينما يجد الاقطاعي وفرة في انتاج الأرض كثيراً ما يسعى لاغتصابها عن طريق التنازل أو الشراء .

كانت الضرائب تثقل كاهل المزارع لذلك كثيراً ما كان يسعى للتنازل عن حقوق ملكيته ليبقى يعمل تحت حماية صاحب النفوذ . أو أن ينسب ملكيتها اليه فيخفف عنه الخراج ويدفع العشر فقط . وفي كلا الحالتين كان المزارع يعيش في قلق واضطراب ويحاول أن يسرق صاحب الاقطاع باخفاء قسم من الانتاج أو يبيعه لكي لا يتمتع غيره بعرق جبينه .

ومن الأسباب الهامة التي أدت الى الحد من نشاط المستوطنات الزراعية قيام نظام الوقف بين القرنين الثاني والثالث للهجرة . وكان القصد من هذا النظام الاستفادة من ريع الحيازات التابعة لأملاك الدولة لتوفير الأموال اللازمة للصرف على المساجد والمشاريع الصحية والتعليمية والخيرية . وكان ناظر الوقف ينتخب عادة من أصحاب الدين، المشهود لهم بالعفة والنزاهة . ولكن نظار الوقف كانوا كأصحاب الاقطاع يجهلون غالباً أمور الزراعة ، وليس لديهم الوقت الكافي للإشراف على حسن ادارة العمل في الحقول والبساتين التي كانت توضع تحت اشرافهم . يضاف الى ذلك أن الأراضي الخاضعة لنظام وقف معين كثيراً ما تكون متباعدة ، فيصبح من الصعب جباية إيراداتها . وفي أكثر الأحوال كانت إيرادات الأملاك الموقوفة لا تسد مصاريف المؤسسات التي أوقفت لها بسبب الإهمال والسرقات التي تتعرض لها .

□ نظام الاقطاع في الدولة العثمانية ، وازدياد عدد الأملاك الموقوفة :

درجت الدولة العثمانية منذ زمن السلطان سليمان القانوني على اقتباس النظام الاقطاعي الذي كانت تسير عليه الامبراطورية البيزنطية، فكان الجنود المستحقون للمكافأة يمنحون في بادئ الأمر اقطاعاتاً صغيرة، ويكون على مالكيه السابقين من الفلاحين أن يواصلوا الحراثة والزرع . وكان على صاحب الاقطاع لقاء ذلك أن يقدم للجيش عدداً من الفرسان أو البحارة ، يتراوح عددهم عادة بين اثنين الى أربعة ، بحسب ثمن الغلة التي يحصل عليها من الأرض . وقد شكلت قوى الفرسان (السباهية) والبحارة الاقطاعية نواة الجيش العثماني في بادئ الأمر .

وكانت هنالك اقطاعات خاصة يمنحها الولاة لأتباعهم الخصوصيين ، وكان هؤلاء لا يقدمون مقابل ذلك أية خدمة عسكرية ، لذلك أصدر السلطان سليمان قانوناً (عام ١٥٣٠ م) بنزع حق الاقطاع من يد الولاة ، ولكن جعل من حقهم أن يقدموا للباب العالي أسماء من يرغبون بمنحهم اقطاعاتاً . فإذا حصلت الموافقة صدرت براءة رسمية وثبتت في السجل الخاص بالاقطاعات . وعند وفاة صاحب الاقطاع فعلى ولده أن يقنع باقطاع أصغر ، ريثما يقيم الدليل بأعماله العسكرية على أنه جدير بذلك الامتياز . وإذا بلغ التاسعة عشرة من عمره ولم يتقدم للخدمة العسكرية خسر الاقطاع . وعلى كل فان كثيراً من الاقطاعيين تجاهلوا أمر الحصول على موافقة الباب العالي ، وبالتالي تخلصوا من دفع الضرائب المترتبة على الانتاج .

شرع السلطان سليمان القانوني منذ عام ١٥٥٠ م بإنشاء عدد كبير من الآثار العمرانية في مدينة استامبول بصورة خاصة وفي بقية دول الأناضول وعواصم البلاد التابعة للدولة العثمانية . وكان أكثرها جوامع ومساجد ومدارس وبيمارستانات . وكلها بحاجة الى عدد كبير من رجال العلم والدين للمقيام بالتدريس والخطابة والامامة ، ونظارة الأوقاف ، الى جانب الحاجة الى عدد كبير من القضاة ورجال الادارة .

كانت الحياة العلمية في الدولة العثمانية خلواً من الأصالة والابداع العلمي . وكانت أقصى غاية المتعلم أن يتمكن من جمع ومعرفة ما أنتجته قرائح الأجيال السابقة . ونظراً لأن التشريع الاسلامي هو المطبق في القضايا المدنية والأحوال الشخصية ، لذلك كانت أمهات كتب العلم والتشريع توضع باللغة العربية .

□ كتب الفلاحه الشاميه بين القرنين الثامن والثاني عشر للهجرة :

حكم مصر وبلاد الشام خلال الفترة الممتدة من عام ٧٨٤هـ الى عام ٩٢٣هـ دولة المماليك الشراكسة ، ومن بعد ذلك التاريخ حكمتها الدولة العثمانية .

كان نظام الحكم في دولتي المماليك الأتراك والشراكسة متشابهاً ، ففي كلا النظامين كان هنالك عدد كبير من الاقطاعيين ، يستمد السلطان نفوذه من نفوذهم وينشد رضاهم ، لأنهم كانوا يمدونه بالرجال والمال والسلاح كلما احتاج اليهم . وقد ظهر في كل من الدولتين سلاطين كانوا على قدر كبير من الشجاعة والبأس ، أمثال الظاهر بيبرس وقللاون وبرقوق وقيتباي ، وغيرهم ، ممن استطاعوا أن يحسنوا ادارة الدولة وأن يخرجوا بقايا الصليبيين من سواحل بلاد الشام . كما ظهر من بينهم سلاطين ضعاف لم يحسنوا الادارة ولم يستطيعوا رد غارات المغول والتتر عن مدن بلاد الشام الداخلية .

لقد سيطر المماليك على القطرين المصري والسوري وجعلوا مقرهم القاهرة . وحينما كانت تلم ببلاد الشام ملمة كانوا يكتفون بإرسال بعض كتائبهم للمشاركة في رد العدوان . أو كانوا يصدرون أمرهم لأحد نوابهم في بلاد الشام لكي يقوم بمساعدة نائب آخر حلت المصيبة في ولايته . وبهذه الصورة بقيت مصر بعيدة عن ويلات الحرب أما بلاد الشام فكانت مسرحاً لها .

لقد انتشر في بلاد الشام ، عقب خروج الصليبيين والتتر ، الفقر والمرض ، وهجرت اليد العاملة أماكن عملها في الحقول والمزارع، وتشرد السكان بسبب خراب منازلهم ونهب حوانيتهم . وقلّت اليد العاملة الخيرة بسبب سوقها أسرى الى بلاد الغربة . لذلك كان الناس في بلاد الشام بأشد الحاجة الى الغذاء والدواء والسكن .

لقد تناقص عدد السكان كثيراً في المدن والأرياف ، من جراء القتل والسبي والأسر والهجرة . ولكن أراضي بلاد الشام المشهورة بخصبها ووفرة مياهها استعادت خضرتها ورونتها ، فجذبت اليها اليد العاملة لاعمارها وزرعها . ولكن الخبرة في فلاحه الأرض واصلاحها قضت عليها الولايات ، لذلك كان لا بد من وضع مؤلفات في علم الفلاحه لترشد الجيل الجديد الى الطرق الصحيحة في ممارسة مختلف الأعمال اللازمة للاستفادة من الأرض .

لم يظهر في بلاد الشام زمن الحكم الأموي أو العباسي أي كتاب حديث التأليف ، يبحث في علم الفلاحه . ذلك لأن العاملين في الانتاج الزراعي كانوا غالباً من أصحاب البلاد القدماء، الذين اكتسبوا خبرة بالوراثة والتجربة ، واعتادوا طرقاً ثابتة في خدمة الأرض ، وانتخاب أنواع المحاصيل ، وتعيين أوقات زرعها وكيفية العناية بها .

لقد قمت بالبحث عن الكتب المؤلفة في علم الفلاحة ، والتي ظهرت بصورة عامة في بلاد الشام ، فوجدت أربعة كتب هامة صنفت خلال الفترة الممتدة بين القرنين الثامن والثاني عشر للهجرة . وسأتكلم فيما يلي بصورة موجزة على أهم المواضيع التي طرقت في تلك المؤلفات ، مع ذكر أهميتها بالنسبة للعلوم الزراعية الحديثة :

أ - كتاب الدر الملتقط من علم فلاحتي الروم والنبط :

يقول الدكتور أحمد عيسى في مؤلفه تاريخ النبات عند العرب انه يوجد في دار الكتب بالقاهرة نسختان مختلفتان من هذا الكتاب ، مقيدتان تحت رقم (٢١) و (٨٤) ، ولا يوجد فيهما تاريخ للنسخ . أما مؤلف هذا الكتاب فهو محمد بن أبي بكر بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي ، المعروف بشيخ حطين .

لم يذكر الدكتور عيسى شيئاً عن الفوارق الموجودة بين المخطوطتين ، كما لم يذكر شيئاً عن حياة المؤلف أو مؤلفاته . وحينما رجعت الى تراجم الأعلام وجدت أن المؤلف المذكور كان يعرف أيضاً باسم شيخ الربوة . وقد جاء في ترجمة حياته أنه ولد في دمشق عام ٦٥٤ هـ - ١٢٥٦ م) ، ولقب بشيخ الربوة لتوليهِ المشيخة والإمامة في قرية الربوة .

ذكره الصفدي في كتابه (الوافي بالوفيات) فقال « عانى الانشغال ، فمهر في علم الرمل والآفاق » كان ذكياً فطناً ، حلو الحديث ، متقشفاً وصبوراً على الفقر والوحدة ، نظم الشعر وصنف في كل علم ، حريصاً على امتاع قارئه مؤلفاته واشباع فضوله وإثارة روح التعجب لديه .

سافر الى مصر وعرف مدنها وعجائبها ، ووصف أكثر ما رآه . كما أنه سافر الى فلسطين في طريقه الى مصر بالذهاب والاياب . توفي في مدينة صفد عام (٧٢٧ هـ - ١٣٢٧ م) . له من المؤلفات كتاب السياسة في علم الفراسة وكتاب نخب الدهر في عجائب البر والبحر ولكن اسمه الوارد في الكتاب الأخير « هو شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي طالب الدمشقي » وهو سهو واضح من الناسخ غالباً لأنه لم يذكر اسم جده .

□ مصادر كتاب الدر الملتقط :

عدد مؤلف هذا الكتاب المصادر التي استقى منها أبحاث كتابه ، وعددها ثمانية . سبعة منها وردت أسماؤها في كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية ، وهي من تأليف قدماء الكلدانيين والأنباط أمثال : قوثامي السوراني (أو الكوكاني) - ذوناي البابلي - صغريت النبطي - كاماش النهري . . . بالإضافة الى كتاب الفلاحة الرومية لقسطوس سكوراسكي . قام المؤلف بعد ذلك بجمع النباتات وصنفها في ثلاثة (أجناس) : المشجر المخيم - المفرس الممدود - الناجم المستأنف . ثم عدد (أنواع) الأشجار بعد تصنيفها في ست زمر وهي :

١ - أشجار ذات ثمر له نوى: مثل النخل والمشمش والخوخ والاجاص والقراصيا والعناب والزيتون (وعدها ١٥) .

٢ - أشجار ذات ثمر بلا نوى : العنب-التين - الكمثرى - التفاح - التوت - الموز - الجميز - السفرجل (وعدها ١١) .

٣ - أشجار ثمرهن حوامض: الأترج-النارنج - الليمون - الكباد - المختم (وعدها ٥) .

٤ - أشجار ذات ثمار دهنية : فستق - بندق - قضم - صنوبر - جوز - لوز - بطم (وعدها ٧) .

٥ - أشجار ثمارها ذات غلف وقشور : الرمان بأنواعه - الشاهبلوط - البلوط - لسان العصفور (وعدها ٦) .

٦ - أشجار غير مثمرة وقسمها الى بستانية - وحشية بعيدة - وحشية برية - علوكات - رطوبات - دوابغ - قوايض عطرية ذات صبغ - دخن .

أما النباتات المعرشة فقسمها الى (١٢) جنساً هي : القرع - البطيخ الأخضر - البطيخ الأصفر - القثاء - اللوبيا - الخيار . . .

لقد أحصى عدد أجناس الأشجار فبلغ (٤٤) جنساً، أما عدد الأنواع فبلغ (٤٥٠) نوعاً .
ثم قسم المتن الباقي من الكتاب الى تسع وعشرين باباً ، تكلم في النصف الأول منها على المواضيع الآتية :

- أسماء الشهور بالأعجمية وما يعمل الفلاح فيها - التوقيت بواسطة القمر ومعرفة الطالع والفارب والمتوسط - منازل القمر - معرفة الأنواء والنظر في دلائل المطر - في ذكر الرياح وأمزجتها والنبات المتأثر بها - تأثيرها في المياه والبقاع - تأثير الشمس ، وهو سر من الأسرار . . .

- في ذكر الأرض الكثيرة الماء في أعماقها ، والقليلة الماء ، والعديمة كذلك ، طيور الماء والتخلص من شرها .

حفر الآبار واستخراج المياه - ازالة البخار القاتل منها - زيادة ماء الآبار بالطرق المختلفة .

- في تأسيس القرى - وضع مساكنها - مدح أهلها - ذكر محاسنهم والوصية بهم لمن ملكهم وحكم فيهم - ذكر أشياء يستعملها أهل القرى فتصح بها جسومهم .

- وصف غرسة الكرمة التي استنبطها النبط والتي تعرف بكرمة الترياق ، ويفني عصير ثمرها عن كثير من الأدوية .



— سقط من المخطوطة البابان الثالث عشر والرابع عشر • أما الأبواب الباقية فتضم المواضيع الآتية :

— ذكر منافع وأدوية سهلة يحتاجها سكان القرية — ما يطرد الحيات والعقارب ويقي من سمومها — الأدوية الشافية من السموم — ما يطرد القمل والبراغيث والفار والجرذ والجنادب والذباب والبق والبرغش والفسافس والنمل والخفاش •

— في تربية النحل ودود القز — اقتناء الدجاج والحمام — تربية الغنم والماعز والبقر والتخيل وسياستها •

— خصص الأبواب الخمسة الباقية للكلام على التكوينات وأسباب تشكلها (تغير صور الكائنات — تكوين الرياحين — استنباط الألوان المختلفة ...

لقد اقتبس شيخ الربوة من كتاب الفلاحة النبطية كثيراً مما جاء في كتابه ، وخاصة أجناس وأنواع الأشجار — الأنواء والرياح — تأثير القمر والشمس — استنباط المياه — تأسيس القرى ومعاملة أهلها — كرمة الترياق — التكوينات • واقتبس من كتاب الفلاحة الرومية كل ما يتعلق بتربية النحل ودود القز واقتناء الطيور والمواشي وما يطرد الزواحف والحشرات ، وما ينفع عند أذاها من أدوية •

ذكرنا في مقدمة الكلام عن شيخ الربوة أنه كان من مواليد وسكان مدينة دمشق • وقد عاصر منذ طفولته وشبابه الانتصارات التي تمت للمسلمين على المغول في عين جالوت ، والتي تلتها انتصارات الظاهر بيبرس وسيف الدين قلاوون على الصليبيين ، وتكلم على ذلك في كتابه نخبة الدهر وعجائب البر والبحر •

قلنا ان شيخ الربوة رحل الى مصر وتجول في أنحائها ، ولكننا لا نعرف المدة التي قضاهما فيها • وعلى كل يمكننا أن نقول بأنها كانت كافية لتأليف كتابه الدر الملتقط في علم فلاحتي الروم والنبط •

ومما يلفت النظر في هذا الكتاب أن مؤلفه حول الشهور السريانية ، المذكورة في كتاب الفلاحة النبطية ، الى شهور أعجمية ليفهمها أهل مصر • كما أنه مدح أهل القرى وذكر محاسنهم وأوصى من ملكتهم أو حكم فيهم أن يحسن معاملتهم ، وهذا ينطبق على سكان الأرياف في مصر أكثر مما ينطبق على المزارعين في سوريا بصورة عامة •

وأخيراً لم نجد في مكتبات الشام أي مخطوط لكتاب الدر الملتقط في علم فلاحتي الروم والنبط ، بينما يوجد له في القاهرة كما رأينا مخطوطتان • وهذا يدل على أن شيخ الربوة قد ألّف كتابه هذا في شيخوخته ، حيث كان في مصر ، بينما ألّف كتاب السياسة في علم الفراسة في مطلع شبابه ، لأنه يوجد في المكتبة الظاهرية أربع نسخ مخطوطة منه •

ب - كتاب مفتاح الراحة لأهل الفلاحة :

وهو كتاب لمؤلف مجهول ، قام بتحقيقه كل من الأستاذين الدكتور محمد عيسى صالحية والدكتور احسان صدقي العمدة ، ونشره قسم التراث العربي في دولة الكويت .

لقد استطاع هذان الباحثان العثور على سبع مخطوطات لهذا الكتاب ، أربع منها محفوظة في بعض المكتبات الأوربية ، وثلاث منها موجودة في مكتبات القطر المصري . وبعد دراسة وتمحيص لتلك المخطوطات تبين لهما أن النسخة ذات الرقم (٦٢٠٨) والمحفوظة في مكتبة برلين الأهلية ، هي أجود النسخ ، من ناحية أسلوبها ودقتها ، وانسجام مادتها العلمية مع طبيعة عنوانها وحسن خطها . فاعتمدت كمخطوطة أم ، واستعين ببقية النسخ لتدارك واصلاح ما أبهم أو نقص من كلمات أو جمل .

لقد جاء في مخطوطة برلين المذكورة أن مؤلف كتاب مفتاح الراحة لأهل الفلاحة هو الشيخ الامام العالم أبو عبدالله شمس الدين محمد ابن وحشية ، أما بقية النسخ المخطوطة فلا تحمل اسم المؤلف . لذلك سمى المحققان ، عن طريق دراسة المخطوط ، والتفتيش عما ورد فيه من أسماء أو أفكار أو أبيات شعر ، لمعرفة هوية المؤلف وتاريخ التأليف .

لقد اتبع المؤلف التقويم السرياني في تحديد مواعيد الفرس والزراعة وتحويل النباتات . وأكثر من الإشارة الى أمكنة وقصص ونباتات لا يعرفها الا أهل الشام ، وهذا ما دعا المحققين الى القول :

« يتبين لنا مما تقدم أن أغلبية الاشارات والشواهد الفلاحية التي اعتنى بها المؤلف تهتم بتلك التي تفلح في بلاد الشام . الأمر الذي يدعونا الى أن نرجح أن يكون مؤلف كتاب (مفتاح الراحة لأهل الفلاحة) مؤلفاً شامياً عاش في النصف الأول من القرن الثامن الهجري على أبعد تقدير » .

أما لمعرفة اسم المؤلف فقد انطلق المحققان الى التفتيش عن يحمل اسم (أبا عبدالله شمس الدين محمد) . وبالرغم من أن شيخ الربوة يحمل نفس اللقب والاسم الا أن ترجيحه من قبل المحققين كان ضعيفاً ، لأنهما لم يجداه كتاباً فلاحياً باستثناء كتاب الدر الملتقط في فلاحتي الروم والنبط . لقد صرح الزميلان أن ما ورد في الكتاب الأخير يختلف عما يشتمل عليه كتاب مفتاح الراحة . لذلك نقول : ماذا يمنع اذن أن يكون هذا الكتاب أيضاً من تأليف شيخ الربوة ، علماً بأن المباحث التي وردت في الكتابين المذكورين يتمم بعضها بعضاً ؟ .

لقد قام المحققان بدراسة متعمقة للنصوص المتعلقة بعلم الفلاحة ، والواردة في كتاب مفتاح الراحة ، فتبين لهما أن مؤلف هذا الكتاب قد اعتمد على الاقتباس والنقل والتلخيص ، ولم يكن لديه تجارب خاصة ولا معاناة في علم الفلاحة . وهذا أمر ذكرناه عند الكلام على مؤلف كتاب الدر الملتقط ، وكل ذلك يؤكد أن شيخ الربوة أو شيخ حطين هو مؤلف الكتابين ، وقد تم تأليفهما في القاهرة ، حيث أمضى سنوات نضجه بصحبة مراجع وردت من الأندلس الى مصر ، ولم يكن لها وجود في بلاد الشام .

□ فهرس كتاب مفتاح الراحة :

يتألف هذا الكتاب من مقدمة وعشرة أبواب • بدأ مؤلفه بعد البسملة بقوله :
« الحمد لله الذي فلق الحب والنوى ، وسخر الأنهار والأمطار لسقي ما احتاج الى الارتواء ،
أوجد الأشياء بقدرته مختلفات لحالتي ضعف وقوى ٠٠٠ » •

ثم تكلم بعد ذلك في أماكن نقل المولّدات من طور الى طور ، بالهام من الله لبعض ذوي
الباب ، بواسطة تدابير او تعافين • فمثلاً اذا عفّنا شعر الانسان في أرض ندية ، خرج منه
ما يشبه الثعابين ، ومن ورق القرع سام أبرص ٠٠٠ وكذلك أنواع النبات كالفلجل
من السلجم ، والزوان من الحنطة ، والنّمام من الريحان ٠٠٠ وقد يتولد من النبات حيوان ،
كما ذكر انه في أرض اسكوسيا ، من جانب البحر من بلاد الفلمنك ، شجر يتولد منه
حيوان كالدود ، ينمو ويزيد حتى يصير كطير الاوز ، وهو كثير في تلك الناحية ، يصاد
ويؤكل ٠٠٠ اما الأبواب التي يتألف منها الكتاب فهي كما يلي :

- الباب الأول : في كيفية كون انبثات وكميته •
- الباب الثاني : فيما يوافق النبات من الأرضين والسرقيين •
- الباب الثالث : في فلاحه الحبوب والقطاني :
- الباب الرابع : في فلاحه البقول •
- الباب الخامس : في فلاحه النبات الذي لثمره قشر •
- الباب السادس : في فلاحه النبات ذي النوى •
- الباب السابع : في فلاحه النبات الذي لا قشر لثمره ولا نوى •
- الباب الثامن : في فلاحه أنواع الرياحين •
- الباب التاسع : في ذكر أشجار الأصماغ والأمنان •
- الباب العاشر : في ملح واشعار ولسان حال الأزهار •

لقد اتبع مؤلف كتاب مفتاح الراحة ، في تصنيف النباتات ، نفس الطريقة التي
اتبعها شيخ الربوة في كتابه الدر الملتقط في فلاحتي الروم والنبط ، وذلك بقسمها الى
الزمر الآتية : حبوب - قطاني - أشجار لثمرها قشور - أشجار لثمرها نوى -
أشجار ليس لثمرها قشر ولا نوى - رياحين - أشجار ذات أصماغ - أشجار ذات
أمنان - وهذا ما يؤيد نظريتنا بأن مؤلف الإنكبتين واحد • يضاف الى ذلك أننا اذا
قارنا بين الأبواب التي يتألف منها كل من الكتابين نجد أنها مختلفة ولا يوجد بينها
تكرار واضح •

لقد تكلم مؤلف كتاب مفتاح الراحة في الباب الأول من كتابه عن كيفية كون النبات ، فنقل عن المسعودي ان ادم عليه السلام لما هبط الى الارض خرج من الجنة ومعه ثلاثون قضيباً مودعة اصناف التمر ، منها عشرة لها فشر وهي : الجوز - اللوز - الجلود - الفستق - البلوط - الشاه بلوط - الصنوبر - النارج - الرمان - الخشخاش * ومنها عشرة لثمرها نوى وهي : الزيتون - الرطب - المشمش - الخوخ - الاجاص - الفيرا - النبق - العنب - المخيط - الزعرور * ومنها عشرة ليس لها فشر ولا نوى وهي : التفاح - السفرجل - الكمثرى - العنب - التين - الاترج - الخروب - التوت - القتا - البطيخ .

ثم أورد بعد ذلك نظرية جاء بها ابن وحشية في كتاب الفلاحة النبطية وهي تقول بأن الماء الراكد اذا طال وقوفه في أرض مائدى حوله ، وتشرب التراب الماء * ثم يضربه الهواء الحار الرطب ثم تسخن الشمس ، فتحدث في الأرض عفونة بتعاون الحارين وهما الشمس والهواء والباردين وهما الأرض والماء ويتشكل شيء يشبه الجيوب والبذور ... يقول صاحب كتاب مفتاح الراحة « يحتاج الانسان لدوام بقاءه لمجموعة من النبات والفواكه والبقول ليقنيات بها * وهذه الانواع التي يحتاج اليها الانسان لا بد من اصلاحها من العوارض والأمراض التي قد تلحق بها * فان فقدت تلك الأنواع عمد الفلاح الى ايجادها بالتوليدات .

كان لنشوب الثورات والحروب وتعدد الكوارث والمحن الطبيعية ، في شرق العالم الاسلامي وغربه ، خلال القرن الرابع الهجري حتى القرن الثاني عشر أثر كبير في حياة الشعوب ، وخاصة فيما يتعلق بتأمين الغذاء * لذلك اصبحت الحاجة ماسة لظهور مؤلفات تتعلق بعلم الفلاحة وتربية الدواجن من طيور وأغنام وأبقار * وقد درج المؤلفون على اطلاق أسماء كتب الفلاحة مرتبطة بالأقاليم التي تمارس فيها ، فقالوا الفلاحة الأندلسية - الفلاحة المصرية - الفلاحة الشامية ، وتعتبر كتب الفلاحة التي ظهرت في بلاد الشام من أحدث تلك المؤلفات ، ومن جملتها كتاب مفتاح الراحة الذي ظهر في القرن السابع للهجرة .

لقد قام محققا الكتاب الأخير باحصاء دقيق للنصوص التي اقتبسها مؤلفه من مؤلفات من سبقه من علماء النبات والفلاحة والأدوية المفردة ، فحصل على ما يأتي :

نقل من مؤلفات قدماء اليونان والرومان أمثال أبقراط وأرسطو وديمقراطيس وديوسقوريدس وجالينوس وبليناس (١١) نصاً - ومن كتاب أبي حنيفة الدينوري (١٧) نصاً - ومن كتاب الفلاحة لابن بصال الطليطلي (٣١) نصاً - ومن كتاب الفلاحة لأبي الخير الاشيبلي (١٠) نصوص * ولكنه اعتمد بصورة خاصة على مؤلفات ابن وحشية وهي : كتاب الفلاحة النبطية - وكتاب أسرار القمر - وكتاب التعافين ، فأخذ مثلاً من كتاب الفلاحة النبطية (٩٦) نصاً تتعلق بأنواع المياه واستنباطها واللوان النبات وأنواع الأراضي واصلاحها ، وافلاح كثير من أنواع الحبوب والقطن والبقول والأشجار المثمرة والرياحين * واهتم بصورة خاصة بنقل التوليدات من كتاب التعافين وقد تجاوز عددها (١٩) توليداً * وسأذكر فيما يلي بعض الأمثلة الموجزة ، لأن طرق التعافين معقدة وتحتاج الى فترة طويلة من الزمن بصورة عامة :

١ - للحصول على أنواع من التين :

قال ابن وحشية « ان خلطتم من اليبروح الرطب ، اصلاً وفرعاً ، مثل وزنه من العسل والشمع ، وزرعتموه في الأرض كما تزرعون سائر الاشياء ، وحفرتم لذلك بالقدر الذي تحفرون لسائر الشجر مثل زرعه من النوى ، وصببتم عليه وقت زرعه من الماء بقدر ما تعلمون أنه قد وصل اليه ، ثم أتركوه ولا تزيدوا على ذلك ، خرج من ذلك التين الأصفر الشديد الحلاوة . وان خلطتم باليبروح أربع ثومات وبصلة وسحقتهم الجميع وزرعتموه ، خرج من ذلك شجر التين الأسود المتوسط ، لكنه ينفض الفم ويأكل اللثة » .

٢ - توليد القطن :

قال ابن وحشية « اذا أردنا أن يكون القطن ، أخذنا من أوراق الكرمة ما رطب ، فجمعنا منها شيئاً صالحاً وألقيناه في هاون حجر ، وألقينا معه ملحاً ثم مثل سدس وزنه قطناً منفوشاً قليلاً قليلاً . ويدقان معاً بالزيت دقاً جيداً ، فاذا اختلطاً أضفنا اليهما شيئاً من خثاء البقر الرطب ، وبالفن في الخلط ، ثم عملناه كهينة كرة ، وطيناها بطين مخلوط بزبل واخثاء البقر ، ثم دفناه وسقيناها فانه ينبت منه ما ذكرنا » .

٣ - وللحصول على شجر اللوز الحلو :

يقول ابن وحشية في كتاب أسرار القمر «خذوا من أذقان التيوس ، واحلقوا منها الشعر ، وانقعوها في دهن الشيرج سبعة أيام . ثم اتركوها في الشمس ثلاثة أيام ، ثم اطمروها في الأرض قائمة ، واجعلوا فوق رأس كل واحدة منها طاقات من الخزامى ، والمقصود الورود المبروغ في التراب ، فانه ينبت منه شجر اللوز الحلو » .

مما سبق يتبين لنا أن مؤلف كتاب الراحة في علم الفلاحة قد اهتم كثيراً بأمور التوليدات العجيبة ، فذكرها كما وردت في مؤلفات ابن وحشية دون أن يلقي عليها أية شبهة ، مما يدل على اعتقاده بإمكان حدوث تلك الأمور التي هي اقرب للخيال منها الى الحقيقة ، أو أنه يرغب في اشباع فضول القاريء واثارة روح التعجب فيه وهو الغالب . وهذا ما يؤكد أيضاً أن مؤلف هذا الكتاب هو شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي طالب الأنصاري الملقب بشيخ الربوة ، والذي جاء في ترجمة حياته أنه كان متصوفاً ، موسوعي الثقافة ، متنوع المعارف . ولكنه لم يكن متمعماً لأحد العلوم أو على رسوخ أصيل فيه . بل كان كثير المطالعة والجمع والاختيار والتأليف . حريصاً على تثقيف السامع أو القاريء وامتناعه واشباع فضوله واثارة روح التعجب فيه » .

ج - كتاب جامع فرائد الملاحة في جوامع فوائد الفلاحة :

ألّف هذا الكتاب عالم من علماء دمشق ، عاش في القرن التاسع الهجري ، فناصر نهاية الحكم المملوكي وبداية الحكم العثماني في بلاد الشام . وهو الشيخ رضي الدين محمد ابن محمد بن أحمد بن عبدالله . بن لؤي بن غالب . تكلم عنه حفيده نجم الدين الغزي في كتابه الكواكب السائرة فقال :

« ولد رضي الدين الغزي جدي صبيحة العاشر من ذي القعدة عام (٥٨٦٢هـ - ١٤٥٨م) . توفي والده رضي الدين شيخ الاسلام وسنه آنذاك دون السنتين . وأسند وصايته عليه الى شيخ الاسلام زين الدين خطاب بن عمرك بن مهنا الغزاوي ، شيخ الشافعية بدمشق . فرباه احسن تربية ، وكفله احسن كفالة الى ان ترعرع وطلب العلم بنفسه » .

امضى رضي الدين الغزي عمره في طلب العلم ، فحفظ القرآن ودرس الفقه والحديث وعلوم اللغة العربية . وولي القضاء بالنيابة وعمره دون العشرين ، ثم تولى القضاء أصالة زمن السلطان سليم العثماني .

زار رضي الدين فلسطين ومصر وقصد البلاد المقدسة للحج . وقد سجل خلال تجواله في تلك البلاد كثيراً من المشاهدات الشخصية المتعلقة بعلوم الزراعة والنبات والعقاقير ، وأضافها الى المعلومات التي اكتسبها أثناء وجوده في دمشق حيث تقلد مناصب دينية رفيعة ، كما تولى نظارة البيمارستان النوري زمن الحكم المملوكي .

صنف رضي الدين الغزي مجموعة من المؤلفات ، طرق فيها أبواب علوم كثيرة ، مما يدل على سعة اطلاعه وحب تعمقه . وقد نظم بعض مؤلفاته شعراً ، وألّف بعضها نثراً . ومن أراجيزه ومؤلفاته الشعرية نذكر :

- | | |
|---------------------------|---------------------------------|
| ١ - ألفية في التصوف . | ٥ - ألفية في اللغة . |
| ٢ - ألفية في علم الهيئة . | ٦ - أرجوزة في الظاءات . |
| ٣ - ألفية في علم الطب . | ٧ - أبيات في العقائد والفرائض . |
| ٤ - منظومة في علم الخط . | |

أما ما ألّفه نثراً فأشهر كتبه :

- | |
|---|
| أ - اتقان ما يحسن من بيان الأخبار الدائرة على الألسن . |
| ب - جوامع فرائد الملاحة في جوامع فوائد الفلاحة الذي نحن بصدده . |

□ مقدمة كتاب جامع فرائد الملاحة وفهرس مواضيعه :

يقول رضي الدين الرحبي في مقدمة كتابه هذا « الحمد لله الذي فتح خزائن الأرض بمفاتيح رحمته ، وزيّّن سماء رياضها بمصابيح حكمته . . . فهذا كتاب يعوّل في علم الفلاحة عليه ، ويرجع في عمارة الأرض اليه . . . » ثم يعدد بعد ذلك عناوين الأبواب التي يشتمل عليها كتابه ، والتي سنذكرها فيما يلي . يضم هذا الكتاب بالاضافة الى مقدمته ثمانية أبواب ، وكل فصل يشمل من (٣-٧) فصول ، وتشمل المواضيع الآتية :

الباب الأول: خصصه للكلام على الأرض وأنواعها ، الجيد والرديء - حرث الأرض واصلاحها - تعمير الأرض بالازبال والأرمدة والأتبان .

الباب الثاني : في السقي ويشمل الكلام على حفر السواقي والآبار واستنباط الماء - كيفية السقي بمختلف الطرق - معرفة حال السنة في كثرة المطر أو قلتها .

الباب الثالث : في الأشجار ، من حيث معرفة قوانين الغرس - كيفية غرس كل نوع من الأشجار - تقليم الأشجار وتسميرها وكسحها وتقليمها وتحسين حملها .

الباب الرابع : في أنواع التراكيب - فيما ينشأ من الأشجار بعضها من بعض - الأشجار المتحابية والمتنافرة والمتضادة وعلاج عللها - في تشكيل الفواكه وغيرها ، واكتسابها منافع وصفات غريبة .

الباب الخامس : في الحبوب والبقول المقتاة ، وقت زرع وحصاد كل منها ، اختيار ما يوافقه من الأرض في زراعة البذور المستعملة في الأظعمة والأدوية - في زراعة البقول والمقاتي والخضروات .

الباب السادس : ويتألف من فصل واحد ، تكلم فيه على أصناف الرياحين والأحباق وزراعة كل منها .

الباب السابع : في الطلاسم والدخن ، وهي تستعمل في اسراع نمو الأشجار وحفظها من تأثير الطيور والقوارض والزواحف والحشرات والأعشاب الضارة - التقويم الزراعي وما يجب على المزارع فعله في كل شهر .

الباب الثامن : في ادخار الفواكه والحبوب والبذور وبعض الخضروات - صنع المخللات وبعض الأغذية المشهية - تحضير عصير العنب والندبس والزيت - تقطير المياه العطرية وحفظها - فوائد منثورة وفوائد ماثورة .

وختم رضي الدين الغزي كتابه في الفصل الأخير من هذا الباب بالكلام على صفات النبات الحي ، والقوى الحيوية التي يتمتع بها ، وهي : القوة الجاذبة للغذاء - القوة الماسكة له - القوة الهاضمة - القوة الغذائية - القوة المصورة - القوة النامية . ثم وضع النبات في مكانه في التصنيف العام ، بالنسبة للمواليد الثلاثة ، وقارن بعدها بين الحيوان والنبات من ناحيتي حس اللمس والالتم .

□ دراسة كتاب جامع فرائد الملاحه في جوامع فوائد الفلاحة للشيخ رضي الدين الغزي :

لقد قامت الآنسة ابتسام فاني ، الطالبة في معهد التراث العلمي العربي بحلب ، بتحقيق ودراسة مخطوط هذا الكتاب ، معتمدة على ثلاث نسخ لمخطوطات محفوظة في بعض المكتبات العربية والأجنبية . ثم قامت بعد ذلك بمقارنته ما ورد في هذا الكتاب من معلومات نباتية وزراعية مع ما جاء في المؤلفات الأندلسية في علم الفلاحة .

وبنتيجة هذه الدراسة تبين للآنسة فاني أن كتاب الغزي المذكور هو كتاب شامل لأبحاث مهمة في علوم الزراعة والنبات ، من الناحيتين النظرية والعملية ، بالنسبة لعصره . وهو يضم بين دفتيه معلومات علمية تطبيقية لا تزال مفيدة حتى وقتنا هذا . وتضيف الى ذلك قولها :

واذا استثنينا الباب السابع من هذا الكتاب ، والذي تكلم فيه مؤلفه على الطلاسم والأدخنة ، ومعرفة حال السنة ، وكذلك اذا استثنينا بعض ما ورد في الباب الرابع من طرائف وخواص وملح الفلاحة ، وبعض أشكال التوليدات التي استفادها من كتاب الفلاحة النبطية ، يمكننا أن نقول بأن كتابه كان أعمق وأشمل وأقرب الى المؤلفات الزراعية العلمية الحديثة ، بالمقارنة مع المؤلفات المشابهة التي ظهرت في بلاد الأندلس .

مما لا شك فيه أن الغزي قد استفاد بصورة واسعة من المؤلفات التي صدرت في الأندلس وخاصة من كتاب الفلاحة لابن بصال، وكتاب المقنع لابن حجاج وكتاب الفلاحة الأندلسية لأبي الخير الاشبيلي .

لقد أشارت الباحثة الى الأفكار العلمية الهامة التي تكلم عليها المؤلف في كل باب من أبواب الكتاب . ومن المستغرب أن يستطيع عالم فقه ودين أن يلم بهذه المعلومات الزراعية العملية ، ولكن حينما نتذكر بأن المزارعين الذين كانوا وما زالوا يعملون في حدائق وبساتين غوطة دمشق ، قد اكتسبوا خبرات عميقة في حقل الزراعة ، عرفنا مصدر تلك الأفكار العلمية التي جاء بها الغزي في كتابه . أما المعلومات التي وردت في نهاية كتاب الغزي، والمتعلقة بصفات النبات ووضعه في تصنيف الكائنات الحية فهو مقتبس على الأغلب من كتاب رسائل اخوان الصفا ، الذي انتشرت نسخته في الأندلس قبل انتشارها في بلاد الشام .

د - كتاب علم الملاحة في علم الفلاحة للشيخ عبدالغني النابلسي :

لقد قام عدة مؤلفين باختصار كتاب الشيخ رضي الدين الغزي ، أو وضعوا مؤلفات مشابهة له، وكان كتاب النابلسي الذي سنتكلم عليه من أشهر تلك المختصرات وأكثرها انتشاراً .

ولد الشيخ عبدالغني بن اسماعيل النابلسي الحنفي النقشبندي في مدينة دمشق عام (١٠٥٠ هـ - ١٦٤٠ م) . توفي والده وهو في الثانية عشر من عمره . فعاش يتيماً . اشتغل بقراءة العلم فقرأ الفقه وأصوله على الشيخ أحمد القلعي ، وقرأ النحو والمعاني والبيان والصرف على الملا محمود الكردي ، وأخذ الحديث ومصطلحه عن الشيخ عبدالباقي الحنبلي . وحينما بلغ العشرين من عمره باشر التدريس في مدينة دمشق . وكان يدمن مطالعة مؤلفات الشيخ محي الدين ابن عربي وغيره من السادة الصوفية .

رحل الى بغداد عام ١٠٧٥ هـ ، ثم زار البقاع وجبل لبنان والقدس ومصر والعجاز . وعاد أخيراً الى دمشق وسكن حي الصالحية ، حيث توفي عام (١١٤٣ هـ - ١٧٣٠ م) .

كان الشيخ عبدالغني النابلسي من أشهر علماء وفقهاء بلاد الشام خلال الحكم العثماني . كان وافر الانتاج ، قام بتصنيف ما ينوف على (٢٢٣) مؤلفاً بين كتاب وديوان ورسالة . ومن الممكن حصر مؤلفاته في أربع زمر ، نذكر منها ما يلي :

أ - أديب الرحلات :

- ١ - حلية الابريز في الرحلة الى بعلبك وبقاع العزيز .
- ٢ - الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية وصف بها رحلته الى القدس عام ١١٠١ هـ .
- ٣ - الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز .
- ٤ - الرحلة الحجازية والرياض الأنسية في الحوادث والمسائل العلمية .

ب - مؤلفات في التصوف والفقہ :

- ١ - قلائد المرجان في عقائد أهل الايمان .
- ٢ - الحديقة الندية في شرح الطريقة المحمدية .
- ٣ - كفاية الغلام في جملة أركان الاسلام .
- ٤ - ايضاح المقصود من معنى وحدة الوجود .
- ٥ - العقود اللؤلؤية في طريق السادة المولوية .

ج - مؤلفات تعليمية :

- ١ - تعطير الأنام في تعبير المنام .
- ٢ - كفاية المستفيد في علم التجويد .
- ٣ - ايضاح الدلالات في سماع الآلات .
- ٤ - علم الملاحة في علم الفلاحة .

د - أورد ودواين شعرية في الالهيات والمدائح والغزل والمراسلات .

مقارنة بين كتاب جامع فرائد الملاحة لرضي الدين الغزي وكتاب علم الملاحة لعبد الغني النابلسي :

يعتبر كتاب علم الملاحة للنابلسي أحد المختصرات العديدة التي ظهرت لكتاب جامع فرائد الملاحة للشيخ رضي الدين الغزي ، كما ذكرنا سابقاً . وقد طبع كتاب النابلسي بدون تحقيق حسب الأصول ، وصدر في بيروت عام ١٩٧٩ م .

لقد بيّن النابلسي في مقدمة كتابه الأسباب التي دعت الى اختصار كتاب الغزي فقال:

« لما وجدت كتاب الفلاحة المسمى بجامع فوائد الملاحة للشيخ الامام العالم العلامة ، والعمدة العجة الفهامة ، رضي الدين أبي الفضل محمد بن محمد بن أحمد الغزي ، العامري الشافعي ، تغمده الله برحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جنانه ، كتاباً جليل القدر

عظيم النفع ، لمن يعاني زراعة الارض وتربية الأشجار . ولكنه مما يحسن فيه الاختصار يذكر ما لا بد منه من الفوائد التي لها اعتبار، وحذف ما المهم حذفه فجمعت الهمة ولخصت غالب ما فيه من المسائل المهمة ، واكتفيت بما هو في الصدد من المراد ، وحذفت ما وقع فيه من الزوائد بطريق الاستطراد . وسميته علم الملاحاة في علم الفلاحة ، ومن الله تعالى استمد العناية والتوفيق ، وأن يهديني الى أفوم طريق » .

لقد قامت الآنسة فاني بدراسة كتاب علم الملاحاة للشيخ عبدالغني النابلسي مستندة الى النسخة المطبوعة ، دون أن تقوم بتحقيق للكتاب حسب الطريقة العلمية ، وذلك لاتساع موضوع بحثها . وقد توصلت للنتائج الآتية :

أ - ان كتاب النابلسي هو فعلاً نسخة مختصرة لكتاب الشيخ رضي الدين الغزي ، مع بعض التعديلات البسيطة من ناحية ترتيب المواضيع . لقد جعل النابلسي عدد الأبواب عشرة تنتهي بخاتمة ، بينما هي ثمانية في كتاب الغزي . كما أن النابلسي لم يقسم الأبواب في كتابه الى فصول ، مثلما فعل الغزي . . أما مواضيع كتاب النابلسي فهي كما يلي :

- الباب الأول : في معرفة الأراضي .
- الباب الثاني : في سقي الأراضي .
- الباب الثالث : في غرس الأشجار والرياحين .
- الباب الرابع : في تقليم الأشجار وكسحها وتذكيرها .
- الباب الخامس : في التركيب وأنواعه (التطعيم) .
- الباب السادس : في الأشجار المتحابة والمتنافرة .
- الباب السابع : في تشكيل الفواكه .
- الباب الثامن : في الحبوب والبذور والبقول وذكر أراضيها وأوقات زرعها .
- الباب التاسع : في أنواع الحبوب المستعملة وما يجعل منها خبزاً .
- الباب العاشر : في طلائم دافعة وخواص أشياء مانعة ، وملح ونوادر نافعة ، وما يعمل به خلال السنة .
- الخاتمة : في كيفية خزن وادخار الحبوب والبذور .

ب - في كتاب النابلسي سقطت بعض الكلمات وحذفت بعض الجمل الهامة مما ورد في كتاب الغزي ، كما وردت أسماء بعض النباتات بصورة غير صحيحة . ولا ندري فيما اذا كان ذلك قد ورد في المتن الأصلي للكتاب أم هو من خطأ الناسخ .

ج - لقد علق النابلسي أو من نسخ عنه على بعض النباتات الطبية تعليقاً خاطئاً فمثلاً قوله « ان الشبارم لم يعثر لها على معنى ولعله نوع من الثبات . . . » علماً بأن

كلمة الشبارم هي جمع شبرم وهو نبات سهل معروف ، وكذلك قوله عن الكندس « انه ليس له ذكر في المعاجم ، ولعل الكلمة عامية تعني نوعاً من المستحضرات الكيميائية المعروفة في ذلك الزمان » علماً بأن الكندس نبات ورد ذكره كثيراً في كتب الطب العربي ، وهو يستعمل كدواء معطّس . وهناك أخطاء أخرى فمثلاً قوله « ان نبات النيل هو اللبلاب ونبات اللوف هو الفيلجوش » .

وإذا تجاوزنا وجود أمثال هذه الأخطاء القليلة يمكننا أن نقول بأن كتاب النابلسي كان مختصراً جيداً لكتاب الشيخ رضي الدين الغزي ولكن التجارب الشخصية فيه كانت قليلة .

□ الخلاصة :

لقد ازدهرت الفلاحة في بلاد الأندلس علماً وعملاً . وكانت الأسباب الرئيسية في ذلك خصوبة أرضها واعتدال مناخها وكثرة أنهارها ونشاط أهلها ، بالإضافة الى حاجتهم الماسة للحصول على المواد الغذائية من حبوب وخضراوات وفواكه بسبب زيادة عدد السكان وكثرة غزو الاسبان .

وقد ظهر في الأندلس علماء في علمي النبات والفلاحة ، اطلعوا على مؤلفات من سبقهم من كتب اليونان والانباط والرومان ، فاقتبسوا كثيراً مما ورد في كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية ، كما اقتبسوا من مؤلفات تيوفراست وأرسطو وديمقريطس وأناطوليوس البيروتي وقسطوس الرومي وغيرهم . كما استفادوا من المؤلفات العربية التي ظهرت في شرق العالم الاسلامي وخاصة كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري وغيره من علماء اللغة الذين عاشوا بين القرنين الثاني والثالث للهجرة .

ومن أشهر علماء الأندلس في علم الفلاحة ممن قاموا بوضع مؤلفات قيّمة في هذا العلم ابن بصّال ، وأبو عمر بن حجاج وأبو الخير الاشبيلي والحاج القرناطي ومحمد بن أحمد ابن العوام الاشبيلي . لقد اقتبس هؤلاء المؤلفون كثيراً من الأفكار التي وردت في كتب الأقدمين . وقد تفاوتت نسبة الاقتباس والابداع الشخصي من مؤلف لآخر . ومن الملاحظ وجود اختلافات بسيطة في هذه المؤلفات من حيث ترتيب الأبواب وتسلسل المواضيع والشرح والاختصار بين باب وآخر . وقد كان ابن العوام أكثرهم أمانة فذكر الأفكار المقتبسة الى جانب أسماء أصحابها ، بينما ذكر بعضهم قليلاً من أسماء المصادر التي اعتمدوها أو لم يذكر أي مصدر أو مرجع على الإطلاق . ومن المفيد أن نذكر بأن مؤلفات الفلاحة الأندلسية قد ظهرت خلال القرنين (١١-١٣) للميلاد .

أما اذا استعرضنا كتب الفلاحة التي تم تصنيفها في بلاد الشام فنجد أن أكثرها قد ظهر خلال الفترة الممتدة بين القرنين (١٥-١٨) للميلاد ، أي خلال حكم المماليك البحرية والدولة العثمانية .

يقول المرحوم الأستاذ محمد كرد علي : « لقد بدأت طلائع الانحطاط في القرن التاسع الهجري فلم ينبغ في الشام رجل أحدث عملاً علمياً عظيماً ، أو دل على نبوغ في فرع من

فروع العلم . وكثر فيه الجماعون والمختصرون والشارحون من المؤلفين . . . ثم زادت الحال اشتداداً بانسيال جيوش تيمورلنك على القطر وقتله لبعض العلماء وحمله الى سمرقند كل ممتاز يعلم أو صناعة .

وفي القرن العاشر الهجري زاد انحطاط العلم ، فلم تكن أيام الترك العثمانيين ميمونة على المعارف في هذه الديار ، وخصصت الوظائف الدينية الكبرى بجماعة السلطان من الترك . .

وقد ذكر المقدسي أن أهل الدولة العثمانية كانوا لا يولون المدارس في الشام أحداً من أبناء العرب ، زاعمين أن العلماء في العرب كثير ، وانهم ان ولوا عربياً كثر الطالبون من أبناء العرب وعجزوا عن ارضائهم ، وضاق الأمر على ملازمي الروم . . » .

لقد حصر الترك عنايتهم بالآستانة ، كما حصروها من قبل ببورصة ، فجعل الفاتح القسطنطينية عاصمة العلم . . » .

وبالرغم من وجود تلك العقبات فقد تسلسل العلم الديني الى بعض البيوت الدمشقية والحلبية في هذا القرن والذي بعده منها بني الغزي وحمزة والعمادي والنبلسي وغيرهم .

لقد ظهر بين أبناء هذه العائلات علماء موسوعيون جمعوا بين علوم الدين والأدب والشعر والنحو . وكانت مؤلفاتهم في العلوم التطبيقية والبحث نادرة . وبما أن بلاد الشام قد مرت خلال الحروب الصليبية وحملات المغول والتتر والثورات الداخلية ، بأزمات اقتصادية ومجاعات نشأت من اضطراب الأمن وغزو المحاصيل الزراعية وانتشار الجراد والأوبئة والأمراض واهمال المزارعين لحراثة الأرض وفرارهم الى المدن طلباً للرزق وخوفاً من بطش الأعداء ، لذلك أصبحت الحاجة ماسة الى ظهور مؤلفات في علم الفلاحة لتعيد للمزارعين محبتهم لأرضهم ، ولتجدد في خبرتهم العملية ، وتهديهم الى طرق جديدة في هذا العلم .

كان أصحاب الطرق من صوفيين ونقشبنديين وجيلانيين وسولويين يسيطرون على عقول سواد الشعب وخاصة زمن الحكم العثماني . وكان الناس يؤمنون بالخوارق ويطلقون على بعض المجذومين أو المعتوهين أسماء الأولياء وأصحاب الكرامات ، لذلك لا عجب ان رأينا أصحاب كتب الفلاحة الشامية يذكرون في مؤلفاتهم عدداً كبيراً من التوليدات الخارقة ، مما ورد ذكرها في كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية ، والتي اعتبرها علماء المسلمين ، أمثال النديم الوارق وابن خلدون ، من أبواب السحر والسموعة . وقد قمت بإحصاء ما جاء من التوليدات في كتاب مفتاح الراحة لأهل الفلاحة ، فبلغ عددها (٣٢) طريقة ، ويقصد بالتوليد الحصول على نبات معين باتباع طرق غريبة لا يقرها العقل ولا تستند على احدي الطرق المعروفة في تكاثر النبات . فمثلاً للحصول على نبات السذاب : تؤخذ رجلاً ديك منقوعتان في عصارة فودنج وتغمسان في الزيت ثم تزرعان ، ويوضع فوق كل منهما حجر من الكندر .

والى جانب تلك التوليدات أورد مؤلفو كتب الفلاحة كثيراً من الطرائف والغرائب ، وهي طرق يراد بها الحصول على صفات جديدة لشمار بعض الأشجار ، عن طريق

التركيب غالباً (أي التطعيم) ، وهي عملية تفنن المزارعون في الأندلس بتطبيقها على نطاق واسع على مختلف الأشجار المثمرة ،

وتوخياً للانصاف لا بد لنا أن نقول بأن مؤلفات الفلاحة ، الذي ظهرت في بلاد الشام ، بالرغم من قلة وجود الابداع فيها الا أنها كانت أكثر تنسيقاً وأجود لغة وأوجز أسلوباً من المؤلفات المماثلة والتي ظهرت قبلها في بلاد الأندلس . يضاف الى ذلك أنها حذفت بعض الأبحاث المتعلقة بنباتات غير معروفة ببلاد الشام وتكلمت على نباتات وخبرات مستوطنة فيها .

ولكي تكون المقارنة بين الفلاحتين ، والتي قامت بها الآنسة فاني ، تامة كان لا بد من استخراج المصطلحات الفنية التي استعملت في الأندلس خلال الحكم العربي ومقارنتها بالمصطلحات المقابلة لها والتي استعملت في بلادنا خلال الحكمين المملوكي والعثماني ، وفي ذلك فائدة كبيرة لمعرفة تطور المصطلح العربي خلال التاريخ والسلام .

★ ★ ★

□ المراجع :

- ١ - كتاب خطط الشام للأستاذ محمد كرد علي .
- ٢ - كتاب تاريخ النبات للدكتور أحمد عيسى .
- ٣ - كتاب مفتاح الراحة لاهل الفلاحة تحقيق د. محمد عيسى و د. احسان صدقي العماد .
- ٤ - مخطوط كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشية نسخة المكتبة الوطنية في باريس .
- ٥ - كتاب الفلاحة لابن بصال تحقيق مياس بيكر وسوا ومحمد عزيان ، تطوان ١٩٥٥ .
- ٦ - كتاب المقنع في الفلاحة لابن حجاج ، تحقيق صلاح جرار وجابر أبو صفية عمان ١٩٨٢ .
- ٧ - كتاب مقدمة ابن خلدون ، طبع دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٥٩ .
- ٨ - كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري ، تحقيق برنهارد ليفين - فيسبادن ١٩٧٤ .
- ٩ - كتاب نغمة الدهر في عجائب البر والبحر لمحمد بن أبي بكر الأنصاري (شيخ الربوة) تحقيق مهران ليبزيغ ١٩٢٣ .
- ١٠ - كتاب الفهرست لمحمد بن اسحق النديم الوراق ، بيروت طبعة رضا .
- ١١ - كتاب المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، د. جواد علي - دار العلم للملايين ١٩٧١ الجزء السابع .
- ١٢ - كتاب الاعلام لغیر الدين الزركلي . دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٩ .
- ١٣ - كتاب علكم الملاحة في علم الفلاحة للشيخ عبد الفتى النابلسي ، طبع دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٧٩ .
- ١٤ - كتاب تاريخ الشعوب الاسلامية لكارل بروكلمان ، ترجمة نبيه فارس ومير بعلبكي ، دار العلم للملايين .
- ١٥ - كتاب تاريخ التراث العربي تأليف فؤاد سزكين ، ترجمة نبدا الله حجازي المجلد الرابع صدر عن جامعة ملك سعود في الرياض عام ١٩٨٦ .
- ١٦ - كتاب الابداع الزراعي في بدايات العالم الاسلامي تأليف اندريو واطسن ، ترجمة أحمد الأشقر من منشورات معهد التراث العلمي العربي - جامعة حلب ١٩٨٥ .
- ١٧ - كتاب جامع فوائد الملاحة في جوامع فوائد الفلاحة ، مخطوط حققته الآنسة ابتسام فاني بإشراف الدكتور محمد زهير البابا والدكتور محمد نذير سنكري عام ١٩٨٧ ، من منشورات معهد التراث في حلب .
- ١٨ - دراسة مقارنة بين الفلاحتين الأندلسية والشامية رسالة قدمتها الآنسة ابتسام فاني لنيل شهادة الماجستير في معهد التراث العلمي العربي - جامعة حلب عام ١٩٨٧ .
- ١٩ - مجلة دراسات تاريخية عدد (٢٥ - ٢٦) لعام ١٩٨٧ - سورية في عصور ما قبل التاريخ د. سلطان مجيسن .
- ٢٠ - الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة للشيخ نجم الدين الغزي - دار الآفاق بيروت ١٩٧٩ .
- ٢١ - لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان القرن العاشر عشر لنجم الدين الغزي - وزارة الثقافة ١٩٨١ .